الهيئة العامة السورية للكتاب دار البعث

أبو القاسم الشابي

عبقرية فريدة وشاعرية متجدِّدة

(بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده)

دراسة ومختارات

د. سحر عبد الله عمران

دمشق ٢٠٠٩

الكتاب الشهري الثاني والعشرون

رئيس التحرير

المدير العام للهيئة العام السورية للكتاب

محمود عبد الواحد

« الشّعر ما تَسمعُه وتُبْصرهُ في ضَجَّة الرِّيح و هديرِ البحار ، وفي نَسْمة الورد الحائرة يُدَمْدِمُ فوقَها النَّحْل، ويُرفرِفُ حولها الفَراش، وفي النَّغمةِ يُرسِلُهَا الفَضاءُ الفسيح»

أبو القاسم الشابيّ

بين يدَي القارئ

حَفَلَ الأدبُ العربيُّ بالدّراسات التي تناولت حياة أبي القاسم الشّابي وتجربتَه الشعرية، وهي بمجملها تُجمع على أنّه كان من رواد الحداثة في الشعر العربي، كما كان شاعراً مقاوماً إبّان الاحتلال الفرنسي لتونس.

وقد كثرت الألقاب التي أُ طلقت عليه، فمنهم من لقَّبه بـ /شاعر الشعب والوطن /، ومنهم من صوّر حياتَه بـ /رحلة طائرٍ في دنيا الشعر/، وثالثٌ رأى فيه شاعر الحب والثورة ، ورابعٌ قرأ في شعره فلسفة الكون فلقَّبه بـ /شاعر الحياة والموت /، وخامسٌ استهواه حديثُهُ عن الشبا ب ودعوتُه إلى الحرية فلقّ به بـ /شاعر الشباب والحرية/، وثمةَ من أطلق عليه كوكب السحر ولحن الخلود ، على أنّ اللّقب الذي أضحى أكثر رواجاً في الأوساط الأدبية هو لقب شاعر تونس الخالد الذي أجاد وزير الثقافة التونسي عبد الرؤوف الباسطي في وصفه عندما قال : «كان شاعراً مبدعاً سطع نجمه في مرحلة مثّلت منعطفاً حاسماً في تاريخ تونس، حينما كانت قضايا الحريةً والاستقلال أهم قضايا النخبة المثقفة، فضلاً عمّا تفرّد به

من خطٍّ شعريٍّ إنساني..».[1]

واحتفاءً بالذكرى المئوية لميلاد الشابي، ووفاءً لإبداعه الشعري فقد حرصنا أن نقدِّم قراءةً لجوانب من تجربته الشع رية نَضعُها بين يدَي قُرّائنا مع مختارات من شعره، آملين أن نكون قد وُفِّقنا فيما قدّمناه.

والله من وراء القصد

د. سحر عمران

دمشق ٢٠٠٩

[1] جاء ذلك في افتتاح الاحتفالية التي تم إطلاقها بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد الشابي في مدينة توزر التونسية مسقط رأس الشاعر بتاريخ ٢٤ شباط ٢٠٠٩م.

أبو القاسم الشابي

الولادة والنشأة

ولد أبو القاسم الشابي سنة ١٣٢٧هـ في الثالث من شهر صفر الموافق للرابع والعشرين من ش باط عام ١٩٠٩م في منطقة الجريد [١] على مقربة من بلدة توزر التونسية.

والده الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي الذي ذهب إلى مصر وهو في الثانية والعشرين من عمره لتلقّي العلم في الجامع الأزهر في القاهرة، حيث مكث سبع سنوات ليعود بعدَه ا إلى تونس حاملاً إجازة الأزهر.

عمل الشيخ محمد قاضياً شرعياً في أكثر من قضاء في تونس، ومنه اقتبس أب و القاسم الشابي العلوم والآداب . ومما قاله أبو القاسم عن أبيه : «إنّه أفهمني معاني الرّحمة والحنان، وعلّمني أن الحق خيرُ ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود »[٢].

في كنف الشيخ محمد الذي كان يقضي ي ومه بين المسجد والمحكمة والمنزل نشأ الشاعر أبو القاسم الشابي، وعلى يديه تلقى علومه ومعارِفَه التي كوّنت لديه لاحقاً مادة غنية أَثْرَتْ ثقافته الأدبية

---

[١] منطقة الجريد التي تعني بلاد النخيل تقع جنوب تونس، وهي تتألف من أربع واحات : توزر ونفتا والعديان والحمّة ، وكلها تقع على تخوم الصحراء، ومما تتميز به أنها غنية بالمياه، وهي ذات أشجار باسقة وموقع جميل أخّاذ.

[٢] عبد العزيز، ضحى : ديوان أبي القاسم الشابي : حياته ـ شعره، دمشق (سورية) ـ دار كرم للطباعة والنشر، ١٩٨٠، ص٤ .

وفجّرت في نفسه ملكات الإبداع ومكامن العبقرية، وقد أتم الشابي حفظ القرآن وهو في التاسعة من عمره[1].

لم يكن الشابي وحيداً في منزل والده بل كان إلى جانبه أخواه : محمد الأمين وعبد الحميد.

وقد أصبح محمد الأمين - المولود عام ١٩١٧م في قابس - أول وزير للتعليم في الوزارة الدستورية الأولى في عهد الاستقلال، وكان ذلك سنة ١٩٥٦، ومما عُرف عنه أنه كان مثقّفاً واسع الأفق سريع البديهة واقعياً في تفكيره متفائلاً في طروحاته وآرائه، مختلفاً عن أخيه أبي القاسم (الشاعر) في نظرته إلى الحياة.

عاصر أبو القاسم الشابي أحداث الحرب العالمية الأولى، وبدأ حياته متنقلاً في طول البلاد وعرضها، إذ إنه هجر مسقط رأسه منذ السنة الأولى لولادته، ولم يأت إليه إلا مرتين: الأولى عند ختانه وكان حينها في الخامسة من عمره، والثانية كان فيها زائراً، وقد استغرقت غربته عن مسقط الرأس عشرين عاماً، الأمر الذي كان له أثر في إنضاج تجربته الشعرية وفي إغنائها.

وفي عام ١٩٢٨ تزوج أبو القاسم تلبية لرغبة والده، ورزق طفلين[2].

في العام ١٩٢٩م نُكب بوفاة والده على إثر مرض ألمّ به، ولمّا كان

---

[1] انظر بحري، مصطفى الحبيب : الشابي النبي المجهول، دمشق (سورية) - وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٠م، ص٦

[2] بحري، مصطفى حبيب، المرجع السابق، ص٧.

الأكبر بين إخوته فقد تولى رعايتهم، متحمِّلاً أعباء المسؤولية بنفسه، مفضِّلاً شظف العيش وقسوة الحياة على الارتزاق من المناصب الحكومية.

وقد ولّد رحيل والده الأسى والحزن في نفسه، وانعكس ذلك في قوله:

يا موتُ قد مزّقتَ صدري وقصمتَ بالأرزاء ظهري
وفجعتني فيمن أُحبُّ ومَن إليه أبُثُّ سرِّي
وأَعدَّه غابي ومحرابي وأغنيتي وفجري
ورزأْتَني في عُمْدتي ومشورتي في كل أمر [1]

وفي العام الذي فقد فيه والده أصيب بداء تضخم القلب، ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين م ن عمره، فلزم بلدته /توزر/ ولم يغادرها إلا بقصد الاصطياف في المناطق الجبليةَ.

نطق أبو القاسم بالشعر باكراً، إذ كانت ثقافته العربية واسعة، تلك الثقافة التي «جمعت بين التراث العربي في أزهى عصوره وبين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق وسورية والمِهجر، ولم يكن يعرف لغةً أجنبية»[2].

نُشرت بعض قصائده عام ١٩٣٣ في مجلة «أبولو» المصرية، وقد عُرِف على إثرها في الأوساط الأدبية في الشرق العربي.

---

[1] الشابي، أبو القاسم: الديوان، بيروت (لبنان) ـ دار النجم، ط١، ١٩٩٤م، ص٦٤ـ٦٥.

[2] عبد العزيز، ضحى: ديوان أبي القاسم، مرجع سابق، ص٥.

قام بجمع ديوانه لأول مرة صيف عام ١٩٣٤م تحت عنوان : «أغاني الحياة»، ولكنْ لم يَتَسنَّ له نَشْرُه، إذ عاجلته المنية في العام نفسه وهو في ريعان الشباب.

ظهر شعره مطبوعاً في المجلد الأول من كتاب «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر». وتُحدِّثُنا الكتب والدراسات التي تناولتْ الشابي أنه كان «يؤمن بأن لقادة الفكر رسالةً إنسانية سليمة، حاول جُهدَه أن يحقِّقها في أثناء حياته القصيرة»[1].

وما عُرف عنه أنه كان من دعاة تجديد الجهاز الثقافي التقليدي، وكان مُنَاصراً لتحرير المرأة، كما كان من دعاة التجديد في الأدب، حيث أحدثَت محاضرته (الخيال الشعري عند العرب) التي ألقاها بدعوة من متخرجي مدرسة الصادقية ضجةً كبرى، وقد تعرض بسببها إلى حملة صحفية عنيفة.

عاش الشابي غريباً في وطنه عن المجتمع الذي شبّ فيه وترعرع، وهو ما أشار إليه في مذكِّراته عندما قال : «أشعر الآن بأنني غريبٌ في هذا الوجود، وأنني أزداد كل يوم غربةً بين أبناء الحياة، وشعوراً بمعاني هذه الغربة الأليمة...»[2].

---

[1] المرجع السابق، ص٧.

[2] جاء ذلك في سياق ما كتبه الشابي ضمن مذكراته بتاريخ ١٩٣٠/١/٧م.

قصة مرضه ووفاته

شعر الشابي قبل إتمامه الدراسةَ الثانوية في جامع الزيتونة بأعراض مَرض القلب التي بدت أكثر وضوحاً عام ١٩٢٩م، ولكي يوفِّق بين رغبةَ والده الذي كان يريده أن يكون متزوجاً وبين مقتضيات حالته الصحية وجد أنْ لا بُدّ من استشارة طبيب، فذهب برفقة صديقه زين العابدين السنوسي لا ستشارة الطبيب محمود الماطرَي الذي أطلعه على حقيقة مرضه، محذِّراً إياه من أي جُهد فكريٍ أو جسدي، وامتثالاً لرأي الطبيب ونزولاً عند رغبة والده عزَم الشابي على الزواج، وعقد قرانه، لكنّ حالة الشابي الصحية تفاقمت بسبب ضعف بنيته الجسدية، وتردّي الوضع المعيشي ل ديه، وكذلك بسبب إهماله نصيحة الأطباء له بألا يُجْهدَ نفسه جسدياً وفكريّاً، فضلاً عن زواجه، وقد كان لتركه الجَرْيَ وَالقفز وتسلق الجبال والسباحة بالغُ الأثر على وضعه الصحي والنفسي، وهو ما عكسه في إحدى يومياته المنشورة بتاريخ ١٩٣٠/١/١٦م، إذ قال : «ها هنا صبْيةٌ يلعبون بين الحقول، وهناك طائفةٌ من الشباب الزيتوني والمدرسي يرتاضون في الهواء الطلق والسهل الجميل، ومن لي بأنْ أكون مثْلَهم؟ ولكنْ أنّى لي ذلك والطبيبُ يحذِّر عليَّ ذلك؛ لأنّ بقلبي ضَعفاً. آه يا قلبي ! أنت مَبعَثُ آلامي، ومستودَعُ أحزاني، وأنت ظُلمةُ الأسى التي تطغى على حياتي المعنوية والخارجيَّة».

أجمع الأطباء الذين عالجوا الشابي على أن المرض الذي لازمه حتى وفاته كثيراً ما يكون وراثياً، وهو يظهر في الغالب لدى الأطفال أو الشباب ما بين العاشرة والثلاثين، وكانت نصائح الأطباء له دائماً

الإقامة في الأماكن ذات المناخ المعتدل، ولهذا وجدناه يُمضي صيف عام ١٩٣٢م في عين دراهم إحدى مناطق تونس المعتدلة مناخياً، وقد رافقه في إقامته هذه أخوه محمد الأمين، كما زار بلدة طبرقة في العام نَفْسِه ليعود بعدها إلى بلدته توزر.

وفي العام التالي زار منطقة المشروحة [١] إحدى ضواحي مدينة قُسنطينة الجزائرية، ومكث بعض الوقت في مصايفها، وما إن جاء الخريف حتى عاد الشابي أدراجه إلى مدينة تونس، ومنها إلى توزر، حيث مسقط رأسه، لقضاء فصل الشتاء فيها.

وفي أواخر العام ١٩٣٣م ساءت أحوال الشابي الصحية، فاشتد عليه المرض، مما اضطرَّه لملازمة الفراش حتى ربيع العام ١٩٣٤م ليذهب إلى الحمّة - أو كما تسمى حامة توزر - طلباً للراحة والاستجمام، لعل ذلك يخفِّف من آلامه، ولكنّ اشتداد المرض عليه دفعه لمغادرة توزر باتجاه العاصمة في ١٩٣٤/٨/٢٦م.

وفي الثالث من تشرين الأول من العام نفسه - أي قبل وفاته بستة أيام - دخل مستشفى الطليان لتلقي العلاج، ولكن المَنيَّة وافته - وهو في المستشفى - الساعة الرابعة من صباح يوم الإثنين في ١٩٣٤/١٠/٩م الموافق لليوم الأول من رجب سنة ١٣٥٣هـ، ونقل جثمانه إلى بلدته توزر بالتاريخ نفسه.

لقي الشابي بعد وفاته عنايةً متميزة، ففي العام ١٩٤٦م تألفت لجنة في تونس لإقامة ضريح له في بلدته توزر التي دُفن فيها.

---

[١] هي منطقة مرتفعة عن سطح البحر، تشرف على مساحات واسعة، وهي مليئة بالبساتين والمناظر الخلابة، ويؤُمها السيّاح في فصل الصيف من كل صَوْبٍ وحدْب.

شخصية الشابي والعوامل المكوِّنة لها

أثرت في تكوين شخصية الشابي عوامل متعددة، كان لها بصماتُها الواضحة في حياته النفسية، وفي اتجاهاته الفكرية والأدبية، وأهم هذه العوامل:

١- مَرضُه الذي ولّد لديه حالةً تشاؤمية سوداوية في نظرته إلى الوجود، وقد انعكس ذلك في سلوكه، إذ جعل منه المرض رجلاً شديد الانفعال.

٢- واقعه المادي الذي نشأ من ضغط أعباء الحياة وتكاليفها عليه، لا سيما بعد وفاة والده الذي أملى عليه تحمّل أعباء المسؤولية الأسرية مبكِّراً، مما حرمه الكثير من الحرية التي كان ينبغي أن يتمتّع بها.

٣- مطالعاته الفكرية والأدبية[١] التي صقلت موهبته، وطَبَعت شعره بمسْحَة من الخيال، وأدخلت عليه شيئاً من الجدّة والطرافة.

٤- واقع الحياة في وطنه: حيث البؤس الاجتماعي والتخلف الثقافي وضعف الأداء السياسي التي هي بمجمله ا من مورِّثات الاستعمار الفرنسي.

وإذا أضَفْنا إلى العوامل آنفة الذكر عبقرية الشابي الأصيلة

---

[١] تُصنف مطالعات الشابي بثلاث مجموعات، هي: الأدب العربي القديم، وبخاصة الصوفي منه، والأدب العربي الحديث، ولا سيما الأدب المهجري، والأدب الأوروبي، وبخاصة المترجم منه إلى العربية، كمؤلفات: «غوته/ Goethe» و«لامرتين/Lamartine» و «أوسيان/Ossian».

وشاعريته الفيّاضة فإننا نجد أنفُسَنا أمام شخصية أدبية مضطربة عاجزةٍ حيناً، متمردة طموحةٍ أحياناً أخرى .. شخصيةٍ تجمع الشيء ونقيضه بآن.

وعن المواصفات الشخصية للشابي تنقل كتب الأدب أنه كان ضعيف البنية، نحيف الجسم، مديد القامة، قويَّ البديهة، حاد الذكاء، سريع الانفعال، بشوشاً، كريماً، وديعاً، متأنقاً، قنُوعاً، متواضعاً، خجولاً، كثير التسامح في معاملة أصدقائه وخصومه، طروباً لمجالس الأدب، رقيق الطبع، لطيف المعشر، خافت الص وت عند التحدث، يُحبُ الفكاهة الأدبية، كما كان قليل التكلُف في حياته الخاصة وفي حياته العامة، وكانت تعلو دائماً وجهَه مسحةٌ من الكآبة والوجوم على الرغم من المرح الذي كان يحاول اصطناعَه أمام أصدقائه ممن كانوا يأتون إليه، كما كان مُحبّاً لبلاده، صادقَ الوطنيةَ..

خصائص شِعر الشابي الفنية

بَزَّ الشابي أقرانه من معاصريه حتى مَنْ هُمْ أكبر منه سناً، إذ إنه ـ وفي زمن لا يتجاوز عشر سنوات ـ بلغ من النُضج الأدبي والفكري ما لم يَبلُغْه أحدٌ من أدباء عصره ومفكِّريه.

وقد عُدّ شاعراً وجدانياً بامتياز، ويُصنِّفُه الدارسون في قائمة شعراء المدرسة الرومانسية أو المذهب الرومانسي، مستندين في ذلك إلى طائفة من المواصفات التي تميزت بها الرومانسية، كاللفظ والأسلوب والقالب الشعري ، والدعوة إلى الطبيعة والإصغاء إلى النفس البشرية ، وكذلك الابتكار في موضوعات جديدة، وكالنزعة الإنسانية والتأثر بالعالم الخارجي وغير ذلك...

ويتوزّع شعر الشابي بين أسلوبين :

الأسلوب المتين والمحكم النسج، ويشكل القسم الأعظم من شعره، ومعظم قصائد هذا الأسلوب في الفخر والرثاء والحكمة، حيث الألفاظ الجزلة المُتَخيَّرة والغريبة بآنٍ إلى درجة تستدعي العودة إلى متون اللغة ومعجماتها في بعض الأحيان.

وهناك الأسلوب اللّيِّن ، ومعظم قصائده يغلُب عليها الطابع الوجداني والخيالي..

والدارس لشعر الشابي يلحظُ أنه كان ناقماً على عمود الشعر العربي، وعلى الحياة العربية الأصيلة، ونَقْمتُه هذه دفعته في سنيِّه الأخيرة إلى الإكثار من استعمال الألفاظ العامية.

أما التراكيب لدى الشابي فتأخذ منحيين:

منحىً التزم فيه أساليب العربية وقواعدها .

ومنحى آخر خرج فيه عن تلك الأساليب، وتحرر من قيودها، مع المحافظة على الأسس العامة لقواعد اللغة .

ومما امتاز به أسلوب الشابي الرصانة في التعبير والبعد عن الركاكة.. وكثيراً ما كانت الرومانسية بعاطفتها الجياشة وبتقديسها للشعور والاستخفاف بالعقل بوصفه يحدُّ من العاطفة تحكم منهجه الأدبي، وتُوجِّهُ سلوكه الفكري.

ولعل هذه الرومانسية التي سيطرت على أسلوبه وعلى تفكيره هي التي ولّدت لديه خيالاً خصباً أثرى شعرَهُ بالصور الأدبية.

ولكن الأبرز في شعر الشابي كان في تلك الجدية الممزوجة بالحزن، والتي طغت عليه منذ عَلِمَ بمرضه.

آثار الشابي الإبداعية

خلّف الشابي قبل وفاته عدداً كبيراً من الآثار الإبداعية : شعراً ونثراً، إذ إن حياته ـ على قصرها ـ كا نت حافلة بالعطاء الفكري والأدبي. ويمكن تقسيم آثار الشابي الإبداعية إلى :

١ـ آثار مطبوعة، وهي:

آ ـ الخيال الشعري عند العرب (محاضرة ألقاها الشابي في القاعة الخلدونية بدعوة من النادي الأدبي لجمعية قدماء متخرجي مدرسة الصادقية في ١٩٣٠/١/٢١م).

ب ـ أغاني الحياة (ديوان الشاعر).

جـ ـ يوميات الشابي، وهي مذكّرات نشرت في الدوريات والمجلات وفي بعض كتب الدراسات قبل موته وبعده.

٢ـ آثار مخطوطة، وهي:

آ ـ جميل بثينة (قصة).

ب ـ قصص أخرى.

جـ ـ صفحات دامية (قصة).

د ـ المقبرة (رواية).

هـ ـ السكّير (مسرحية).

فضلاً عن مجموعة من المقالات والمحاضرات كتبها الشابي، ولكنها لم تنشر.

أما رسائل الشابي فهي تلك التي تبادلها مع عدد من أصدقائه بين (١٩٢٨ ـ ١٩٣٤)، ولا تخرج عن كونها رسائلَ عاديةً تعتمد أسلوب

المباشرة، بعيداً عن التأنّق اللفظي، وهي تمثل عهد الشباب بما يحمله من حماس وعفوية وعواطف جياشة.

ولعلَّ أهمية هذه الرسائل أنها تكشف عن جوانب مهمة من حياة الشاعر.

وأما مذكّرات الشابي أو كما تسمى يوميات الشابي فتبلغ ثلاثاً وعشرين مذكرة أو يومية، وقد بدأ بهذا النمط من الكتابة منذ مطلع عام ١٩٣٠م.

وما تتميز به مذكراته أنها عبارة عن خواطر وجدانية يَبُثُّ عبرها بعضاً مما يعتريه. ففي إحدى هذه اليوميات أو المذكّرات كتب يقول: «أشعر اليوم بفتورٍ في بدني ..، أُحِسُّ بكآبة عميقةٍ تجعلني أكره الكتب والمحابر والأقلام.. إلخ».[1]

[1] انظر موقع الشابي على الإنترنت (آثار الشابي).

أغراض الشابي الشعرية

المعروف عن الشابي أنه تمرّد على الفنون التقليدية المألوفة في الشعر العربي، ولم يع تمد إلا على النّزر اليسير منها ، وبالتالي فإن الأغراض الشعرية لديه كانت محدودة تقتصر على مايُعبَّر فيه عن شعوره، كالوجدانيات، وعلى شيءٍ من التأمل في الحياة .

وفي ضوء ذلك فإننا نجد أن أغراض الشابي الشعرية، هي :

- التأمل في الطبيعة كتأمله في (الخريف والمساء والفجر والأشجار والطيور والأزاهير...إلخ).
- التأمل في الحياة الاجتماعية بأبعادها السياسية والوطنية والأدبية.
- التأمـــل في الغيبيات أو في الكـــون (الماورائيات)، كالتأمل بالخالق والموت والحياة...
- الوجدانيات كالحب والغزل والرّثاء.
- الموضوعات النفسية، كالكآبة وا لأمومة والطفولة وعالم الشعر..

١ـ من تأملاته في الطبيعة :

يطالعك ديوان «أغاني الحياة» بحشدٍ كبيرٍ من المفردات استعارها الشابي من الطبيعة، وإن دَلَّ ذلك على شيءٍ فإنما يدل على عمق تأمل الشاعر بالحيا ة الطبيعية المحيطة به ، فهو يستلهم منها ما يغني تجربته الشعرية ، ويجعلها أكثر عمقاً، وأكثر التصاقاً بالواقع . من ذلك استخدام كلمة الرعد للدلالة على انبعاث الصّدى يحمل

معه ماءَ الحياة، كما في قوله[1]:

رتّل الرّعد نشيداً ردّدتْه الكائناتْ

وما الأودية إلا ذلك الكائن الحي تلتقط خلاياه الصدى وهو يمتد في الأعماق السحيقة كما لو كان من جبابرة الجنّ:

يتهادى بضجيجٍ في خلايا الأوديهْ

مثلَ جبّار بني الجنّ بأقصى الهاويهْ

ويستخدم الليل للدلالة على الرّهبة والكآبة والجمال والغرابة بآنٍ، في قوله:

فسألتُ اللّيل، واللّيلُ كئيبٌ ورهيبْ

شاخصاً بالليل، والليلُ جميلٌ وغريبْ

ومن قلب الظلام الحزين تنبجس عنده ابتسامة الفجر:[2]

ثورة الشرّ وأحلام السلامْ، وجمال النورْ

وابتسام الفجر في حزن الظلام، في العيون الحُوّرْ

وعلى السَّفح تتراءى له زنبقةٌ يقتلها الظمأ، فيرى فيها نفسَه الحزينة الكئيبة، وقد تجرّعت من كؤوس الحياة الأسى والألم[3]:

---

[1] ـ الدّيوان، من قصيدة «أُنشودة الرعد»، ص١٦.

[2] ـ الديوان، من قصيدة «في الظلام»، ص١٧.

[3] ـ الديوان، من قصيدة «الزّنبقة الذاوية»، ص٢٣-٢٤.

أزنبقةَ السّفْح ! مالي أراكِ تعانقُكِ اللوعةُ القاسيةْ؟ !

❖ ❖ ❖

إذا أضجرتْكِ أغاني الظلام فقد عذّبتني أغاني الوجومْ

وإن هجرتْك بناتُ الغيوم فقد عانقتني بناتُ الجحيمْ

❖ ❖ ❖

وإن سكب الدّهْرُ في مسمعيك نحيبَ الدُجى، وأنينَ الأملْ

فقد أجّج الدهر في مُهْجتي شُواظاً من الحَزَنِ المُشتعلْ

وإن أرْشفتك شفاهُ الحياة رُضابَ الأسى، ورحيقَ الألم

فإنّي تجرّعتُ من كفّها كؤوساً مؤجّجةً، تضطرمْ

وتستهويه مناجاة عصفور[1] وهو يتنقل في فصل الربيع من فَنَنٍ إلى فَنَنٍ آخر، فيرسم لنا صورة تلك المناجاة في لوحةٍ شعرية ساحرة، حيث يقول:

يأأيها الشّادي المغرِّدُ هاهنا ثَملاً بغبطةِ قلبه المسرورِ

متنقّلاً بين الخمائل، تالياً وحيَ الربيعِ الساحرِ المسحورِ

غرِّد، ففي تلك السهول زنابقٌ ترنو إليك بناظرٍ منظورِ

[1] ـ عنوان قصيدة له في ديوانه ، «أغاني الحياة »، ص٣٩.

غرِّد، ففي قلبي إليكَ مو ـدّةٌ لكنْ مودّةُ طائرٍ مأسورِ

هجرتْه أسراب الحمائم، وانبرت لعذابه جنّيّةُ الدّيجور

غرِّد ولا تَرْهَبْ يميني، إنني مثلُ الطيور بمهجتي وضميري

رتّل على سمع الربيع نشيدَه واصْدَحْ بفيضِ فؤادك المسجورِ [1]

وانشدْ أناشيد الجمال، فإنها روحُ ا لوجود وسَلوةُ المقهورِ [2]

أنا طائرٌ متغرِّدٌ مترنّمٌ لكنْ بصوت كآبتي وزفيري

ومن صورة عصفور يصدح بين الخمائل إلى صورة مساءٍ يلفُّه الحزن والأسى واللوعة .. مساءٍ وقف الشاعر يستجديه أن يعيد ربيع الحياة إلى قلبه الذي بات يباباً [3]:

أظَلّ الوجودَ المساءُ الحـ ـزينْ وفي كفِّه معْزَفٌ لايُبينْ

وفي ثغره بسماتُ السّجون وفي طَرْفِه حسراتُ السنين

وفي صدره لوعةٌ لا تقرّ وفي قلبه صعقاتُ المنون

❖ ❖ ❖

وقفتُ، وساءَلْتُه: «هل يؤ وب بقلبي ربيعُ الحياة الشّرودْ»؟

---

[1] المسجور: الممتلىء

[2] السَّلوةُ: مايجلو الهمّ ويُزيله

[3] ـ انظر الديوان ، قصيدة «المساء الحزين» ص ص٤٢-٤٤ .

«فتخفُقُ فيه أغاني الورودْ ويخْضرُّ فر دوسُ نفسي الحَصيِّد؟ !

وفي مسحة من التفاؤل يرسُمُ لنا الشابيُّ طريق الخلاص، وبلغة تقريرية يؤكد أن غيوم الشتاء هي التي أكسبت ورود الرياض رونقها، كما أن تجهّمَ الحياة وقسْوَتَها هما اللذان نسجا للصُّبح عباءته :

ولولا غيومُ الشتاء الغضابُ لما نَضَّدَ ال رّوضُ تلك الورود

ولولا ظلامُ الحياة العَبُوسُ لما نسج الصّبْحُ تلك البرودْ

وإذ يتأسّى الشابيُّ لأحوال الفقراء والأيامى [1] واليتامى يهزأ بالخريف متطلّعاً إلى ربيعٍ دائم لا تنقطع نُضْرتُه، إذ يقول [2] :

وجاشت بنفسي دموعُ الحياة، وعجّت بقلبي رياح الصُّروفْ

لقلب الفقير الحطيم الكسير ودمع الأيامى السفيح الذّريف

ونَوْحِ اليتامى على أمهاتٍ، توارَيْنَ خلف ظلام الحُتُوف

فَسرْتُ إلى حيث تأوي أغاني الربيع، وتذوي أماني الخريف

ويقلِّبُ الطَّرْفَ في هذا العالم الفسيح، فيستوقفه ما فيه من جمال، ولكنه يستنتج من د ورة الحياة ومن حركتها أن لكل شيءٍ خريفاً، وحتى الجمال يؤول إلى خريف :

فَقلّبتُ طرفي بمهوى الزّهورْ

وصعّدته في الفضاء الأسيف [3]

---

[1] ـ الأيامى: النِّسوة وقد فَقَدْن أزواجَهُن.

[2] ـ انظر الديوان ، قصيدة «بقايا الخريف»، ص٤٤-٤٥ .

[3] ـ الأسيف: الحزين.

وقلت: « هو الكون مهدُ الجمال

ولكنْ لكلّ جمالٍ خريفْ »

وينادي الشابي في قصيدته «رثاء الفجر »[1] زَهوَ صباه وفتوّةَ أحلامِه وفجر شبابه الذي بات بعيداً عنه، مُتَحسِّراً على حَياته الحالِمة التي عاشها بين أحضان الطبيعة، حيث الخمائل والجداول وموسيقاها العَذبة تمتدّ في كلِّ اتجاه :

يا أيها الغابُ المُنَمَّقُ بالأشعّةِ والورودْ !

يا أيُها النُور النقيُ ! وأيُها الفجرُ البعيد !

أين اختفَيتَ؟ وما الذي أقصاكَ عن هذا الوجود؟

آهٍ! لقد كانت حياتي فيك حالمةً، تميدْ

بين الخمائلِ والجداولِ والترنُم والنشيد

وفي مدينة عين دراهم التي تقع في أقصى الشمال من تونس الخضراء أمضى الشابي بعض الوقت بغرض الاستشفاء بين غابات الطبيعة الملتفّة وجباله الشُمّ المجلَّلة بالسنديان ، ومن ذلك المشهد الساحر كانت قصيدتُه من أغاني الرُعاة[2] التي ما هي إلاّ صورة ـ كما يقول ـ من صور الحياة بين تلك الجبال والأودية والغابات، إذ لا يكاد يخلو بيت فيها من ذكْر شيءٍ من الطبيعة، كالصّبح، والرُبى،

---

[1] الديوان، ص٨٥.

[2] انظر الديوان، ص ص ١٠٣ ـ ١٠٥

والصَّبا، وا لغصون، والنور، والزّهر والطير .. وغير ذلك . إنه مشهد الطبيعة بلغة الشعر، يقول الشابي :

أقبلَ الصُبح يُغنِّيْ للحياةِ النّاعِسَةَ

والرُبى تَحلُمُ في ظلِّ الغُصُونِ المائِسةْ

والصَّبا تُرقِصُ أوراقَ الزُهورِ اليائِسةْ

وتهادى النُورُ في تلك الفِجا ج الدّامِسَةْ

ومع «الصباح الجديد »[1] يودِّع الشاعر آلامه وشجونه، ويبدأ رحلته مع حياةٍ ملْؤُها الفرح والسعادة والسرور :

أسكني يا جراحْ واسكني يا شجونْ

مات عهدُ النُواحْ وزمانُ الجنونْ

وأطلَّ الصباحْ من وراءِ القرونْ

❖ ❖ ❖

في فِجاج الرّدى قد دفَنْتُ الألَمْ

ونثرتُ الدُموعْ لرياح العَدَمْ

واتَّخذْتُ الحياةْ مِعْزَفاً للنَّغَمْ

أتغنّى عليهْ في رحاب الزّمانْ

---

[1] ـ الديوان، ص١٠٨ .

ومن صباح الحياة الآسرة ينقلنا الشابي إلى صباحٍ ساحرٍ تتمايل فيه الغصون مع النسيم العليل، وينسابُ الضباب فيه وَسط المروج الخُضر[1]:

قدّس الله ذِكْرَه من صباحٍ ساحرٍ، في ظلالِ غابٍ جميلِ

كان فيه النسيمُ يرقصُ سكراناً على الورد، والنبات البليلِ

وضبابُ الجبالِ ينسابُ في رِفْقٍ بديعٍ على مروج السهولِ

ويستعير الشابي من الطبيعة ما لا حصر له من المفردات في قصيدته «تحت الغ صون»[2]، من مثل : الغاب، الخمائل، الزّان، السنديان، الزيتون، الضياء، البنفسج، الضباب، المساء، الشَّفَق، العبير، الربيع، الزهر، السهل، الرُّبى، الينابيع، العصافير، الظل، الغصون، الأقحوان، الليمون ... والقائمة تطول حتى لكأنك أمام الطبيعة كلِّها في قصيدة. يقول الشابي:

هاهنا في خمائل الغاب، تحت الزّ

انِ والسّنديان والزيتونِ

أنتِ أشهى من الحياة وأبهى

من جمال الطبيعة الميمونِ

❖ ❖ ❖

[1] ـ انظر الديوان ، قصيدة «ذكرى صباح» ، ص١٠٩ .

[2] الديوان، ص١١٦.

فَلِمَن كنت تُنْشِدين؟ فقالت :

«للضّياءِ البنفسجيِّ الحزينِ »

للضّباب المورّد المتلاشي

كخيالاتِ حالمٍ مفتونِ

للمساءِ المُطلِّ للشّفق السّاجي

لسحر الأسى، وسحر السكونِ

«للعبير الذي يرفرف في الأُفْقِ

ويفنى، مثل المُنى في سكون »

للربيع الذي يؤجِّج في الدنيا

حياةَ الهوى، وروحَ الحنين

وفي قصيدته «الغاب»[1] نجد هذا الحشد أيضاً من مفردات الطبيعة:

بيتٌ بَنَتْه ليَ الحياةُ من الشّذى

والظلِّ والأضواءِ والأنغامِ

في الغاب سحرٌ رائع متجدِّدٌ

باقٍ على الأيام والأعوامِ

وشذىً كأجنحةِ الملائك غامضٌ

ساهٍ يرفرف في سكونٍ سامِ

وجداولٌ تشدو بمعسول الغِنا

وتسير حالمةً بغير نظام

[1] ـ الديوان، ص١٢٨

ومخاوفٌ نَسجَ الزم انُ بِسَاطها

من يابس الأوراق والأكمامِ

وحنا عليها الدّوْحُ في جبروته

بالظلِّ والأغصانِ والأنسامِ

٢ـ من تأملاته في الحياة الاجتماعية:

كانت تونس الوطن دائماً في ذاكرة الشابي وعلى لسانه يَلْهَجُ بها في شعره ونثره، وكان أكثر ما شَغَلَ بالَه وفجّر قريحتَه ذلك الخَطْبُ الثقيل الذيَ ألقىَ بكاهله على البلاد والعباد، كلّاً الأنفاس، مُستبيحاً الحمى فانبرى متأسِّياً عَلى وطنه، نادباً حَظَّ شعبه العاسرْ، مصوِّراً واقعَهَ المرير وحالَ الاضطهاد الذي يتعَرّضَ إليه في لوحة شعرية تجعل المرءَ يعيش لحظةً بلحظةٍ خلجاتِ الشاعر المُضطربة التي تُوحيً بمدى حُبِّه لوطنه ولشَعْبه.

ففي قصيدته «تونس الجميلة»[1] يعكس لنا الشابي حياةَ مُجتمعه وقد أُخْمِدَ صَوتُه، وأُرهق عَسْفاً واضطهاداً، وأخذت المصائبُ تتناوبَ عليه منَ كلِّ حدب وصوب، حيث يقول:

لستُ أبكي لعَسْفِ لي لِ طويلِ

أو لِرَيْعِ غدا العَفاءُ مَراحَه [2]

إنّما عَبْرتي لِخَطْبٍ ثقيلِ

قد عَرانا [3]، ولم نَجِدْ مَنْ أزاحَه

---

[1] ـ الديوان، ص١٢ ـ ١٣ .

[2] العَفاءُ: الهَلاكُ أو الدّارسُ من الدّيار . والمَرَاح: اسمٌ من مَرِحَ الرَّجلُ إذا اشتد نشاطُه وفرحُه، وتعني البطر والاختيال..

[3] عَرَانا: أصابنا أو ألمَّ بنا أو مسَّنا.

كلّما قامَ في البلاد خطيبٌ

مُوقظٌ شَعْبَه يُريدُ صَلاحَه

أَخْمدُوا صَوتَه الإلهيَّ بالعَسْـ

ـف، أَماتُوا صُداحَه ونُواحَه [1]

أَلْبَسُوا رُوحَه قميص اضطهادٍ

فاتكٍ شائكٍ يَرُدُّ جماحَه [2]

وتوخَّوا طرائقَ العَسْفِ والإرْ

هاقِ تَوّاً، وما تَوخَّوا سَماحَه [3]

هكذا المخلصون في كُلِّ صَوبٍ

رشقاتُ الرّدى إليهم مُتَاحه

غير أنّا تناوَبَتْنا الرّزايا

واستباحَت حمانا أيَّ استباحَه

وبنظرةٍ متفائلةٍ إلى المستقبل يرى الشابي أنّ الظلام سيزول، وسيستردُّ الشعب عافيته وقوته:

إنَّ ذا عصْرُ ظُلمةٍ، غير أني

مِن وراءِ الظلام شِمْتُ صباحَه [4]

ضيّعَ الدَّهرُ مجدَ شعبي، ولكن

---

[1] الصُداح: رَفْع الصوت بالغناء.
والنُّواح: البُكاءُ والعَويل تعبيراً عن الحُزْن.

[2] يُردُ جماحه: بمعنى يَحُول دون وصول صوته، أو يكُمُ صوته أو يكبحه..

[3] توخّوا: قصدوا وتعمّدوا. العَسْف: الظّلم والسّير على غير هداية.

[4] شِمْتُ: أي أبصرت.

ستردُّ الحياةُ يوماً وِشاحَه [1]

وبالنظرة المتفائلة نفسها يرى الشاعر أنه ما من ليلٍ إلا يعقبه فجر، وما من ظلام إلا يعقبه ضياء . يقول في قصيدته «نظرة إلى الحياة»[2]:

الفجرُ يسطَع بعد الـ دُجى، ويأتي الضياءْ
ويرقُد اللّيلُ قسراً على مَهادِ العَفاء

وفي قصيدة له بعنوان : «إلى الطاغية »[3] يُبشِّرُ بيومٍ ينتفضُ فيه الشعب على جَلاديه، محطِّماً عروش الطغاة المستبدين، حيث يقول :

يقولون: صوت المستذلّين خافتٌ
وسَمْع طغاة الأرض (أَطْرَشُ) أَضْخَمُ
وفي صيحةِ الشعبِ المُسَخَّرِ زَعْزَعٌ
تَخُرُّ له شُمُّ العروش، وتُهْدَمُ
لك الويلُ يا صرحَ المظالِم من غدٍ
إذا نهض المستَضْعَفُون، وصمَّمُوا
أَغرَّكَ أنّ الشعب مُغْضٍ على قَذىً [4]
وأنّ الفضاء الرّحْبَ وسْنانُ مُظلم؟

---

[1] الوِشاح: السيف (رمز القوة والعافية).

[2] الديوان، ص١٤ ـ ١٥ .

[3] الديوان، ص٣٢.

[4] مُغْضٍ على قذىً: أي يحتملُ الضَّيم ولا يشكو.

ومن تأملاته بحال البلاد والعباد إلى هُيامه بالأدب، ولا سيما الشعر منه الذي يرى فيه إلهاماً تجيش به الصدورُ أحاسيسَ

ومشاعر، يقول في قصيدته «شعري»[1]:

شعري نُفاثَةُ صدري إن جاش فيه شُعوري

لولاه ما انجابَ عنِّي غَيمُ الحياةِ الخطيرِ

ولا وجدْتَ اكتئابي ولا وجدتَ سروري

به تراني حزيناً أبكي بدمعٍ غزيرِ

به تراني طروباً أجُرُّ ذيل حُبُوري[2]

حسبِي إذا قلتُ شعراً أن يرتَضِيه ضميري

ولا غرابة في ذلك، فالشعر لدى الشابي مَلاكٌ، لا بل هو الحاضر والماضي، الطارف والتليد، وهو الهدف الذي طالما تطلّع إلى بلوغه، كما هو واضح في قوله:

يا شِعْرُ ! أنت ملاكي وطاريفي، وتِلادي

أنا إليك مُرادٌ وأنت نِعْمَ مُرادي

فالشعر لديه فلذةُ فؤاده، وقطعةٌ من وجوده، وفي كليهما حنين إلى الوجود، كما في كليهما البكاء والفرح، الظلام والصباح، الضباب

---

[1] الديوان، ص٢٥.

[2] الحبُور: السرور والنِّعمة، وجرّ ذيل الحبور: أي حمل معه السُّرور والغبطة أو البهجة.

والسّراب، والحنين والشج ون، وكلٌ منهما متَّحدٌ بالآخر، وكلٌ منهما فيه ما في الآخر، وهو ما تُجسِّدُه قصيدته : «قلت للشعر »[1]، التي يقول فيها :

أنت يا شِعرُ فِلذةٌ من فؤادي

تتغنّى، وقِطعةٌ من وجودي

فيكَ ما في جوانحي منْ حنينٍ

أبديٍّ إلى صميم الوجودِ

فيكَ ما في خواطري من بُكاءٍ

فيك ما في عواطفي من نشيدِ

فيك ما في عوالمي من ظلامٍ

سرمديٍّ، ومن صباحٍ وليدِ

فيك ما في عوالمي من نجومٍ

ضاحكاتٍ خَلْف الغَمام الشّرودِ

فيك ما في شبيبتي من حنينٍ

وشجونٍ وبهجةٍ وجمودِ

أنتَ يا شِعرَ قصةٌ من حياتي

---

[1] الديوان، ص٥٩ .

ولم يكن الشابي يجيد لُعْبة ركوب الموجة السياسية، أو المداورة والمناورة، ولذلك وجدناه ناقداً لاذعاً في ن قده للشعب ولما توارثه من تقاليد وأعراف تتعارض مع مبادئ الرسالة السَّمحة . يقول في قصيدته: «أبناء الشيطان»[1]:

أيّ ناسٍ هذا الورى؟ ما أرى إلا برايا شقيّةً مجنونَهْ

جَبْلَتْها الحياةُ في ثورة اليأس من الشرِّ كي تُجَنّ جُنُونَهْ

فأقامت له المعابد في الكون ، وصلّت له وشادت حُصُونَهْ

❖ ❖ ❖

وها هي الفتاة الجميلة تُعابُ إذا صانت الفضيلة، وتكون محلَّ تقدير وتقديس إذا ارتكبت الفا حشة:

كم فتاةٍ جميلةٍ مدحوها وتَغنّوا بها لكي يَسقطوها

فإذا صانت الفضيلة عابُوها وإن باعت الخَنا عَبدُوها

أصبح الحُسْنُ لعنةً ، تَهْبِطُ الأرضَ، ليَغويَ أبناؤها وذَووها

وكما هو ناقدٌ لموروثات هذا الشعب البالية، كذلك هو ناقدٌ لمَن ضيَّقوا عليه وحاصروه، وسلبوه إرادة الحياة الحرّة الكريمة . يقول:

وشعوبٍ ضعيفةٍ تتلظّى في جحيم الآلام عاماً فعاما

[1] الديوان، ص٨٠ ـ ٨١ .

والقويُّ الظّلومُ يَعْصِرُ م ن آلامِها السُّودِ لذةً ومُداما

يتحسّاه ضاحكاً . لا يراها خُلِقَتْ في الوجود إلا طعاما !

ويرى أن قومه أسيرو أهوائهم، لا يُعيرون أي اهتمامٍ لمعاصريهم من رجال الفكر والعلَم، لا بل يتقدّم عندهم الأموات على الأحياء .

يقول الشابي في قصيدته «الناس»[1]:

لا يَعبدُ الناسُ إلا كُلّ مُنعَدِمٍ

مُمَنّعٍ، ولِمَن حاباهُمُ العَدَمُ

حتى العباقرةُ الأفذاذُ حُبُّهُمُ

يلقى الشقاءَ، وتلقى مَجدَها الرِّمَمُ

الناسُ لا يُنصِفونَ الحيّ بينَهُمُ

حتى إذا ما توارى عنهُمُ نَدِموا !

الويلُ للنّاسِ من أهوائِه م، أبداً

يمشي الزّمانُ وريحُ الشرِّ تَحْتَدِمُ

٣. من تأمّلاته في الغيبيّات (الماورائيات):

وَجْهٌ آخر لأغراض الشابي تتسربل به قصائده، يأخذك فيه إلى (الماورئيات) حيث الموت والحياة ، وحيث الخالق والمخلوقات . ففي ثلاثة أبيات يتفحص ما حوله، فيجد أنّ الحيا ة قيثارة اللّه على الأرض، وأنَّ المخلوقات فيها ألحان تلك القيثارة، فمنها ما يَشِذُّ

[1] الديوان، ص١٢١ .

بصوته عن اللّحن فيُحدث اختلالاً فيه، ومنها ما يُحسّن الأداء فيأتي صوته متساوقاً مع اللحَن كالسحر تنجذب إليه المشاعِر، أما الليالي فهي أشبه بالمغاور يُدْفَنُ فيها اللّحن ويضيعُ صَداه..[1]

إنّ هذي الحياةَ قيثارةُ الله، وأهلُ الحياة مثْلُ اللّحون

نَغَمٌ يسْتبي المشاعر كالسّحر، وصوتٌ يُخِلُّ بالتلحين

والليالي مغاورٌ، تُلْحِدُ اللّحنَ وَتقْضِي على الصّدى المسكينِ

وفي قصيدته «نظرة في الحياة »[2] الفرحُ والحزن عنده سيّان في ه ذا الكون :

الكونُ كونُ شقاءٍ الكون كون التباسْ

الكون كون اختلاقٍ وضجّةٍ واختلاسْ

سيّانِ عنديَ فيه الـ ـسّرور والابتئاسْ

أما ما يتراءى له من الحياة، فما هو إلا بقايا من الآمال والخطايا :

إنّ الحياةَ سُباتٌ سينقضي بالمنايا

وما الرُّؤى فيه إلا آمالُنا والخطايا

فإنْ تيقّظَ كانتْ بين الجفون بقايا

---

[1] انظر الديوان، ص١٤ .

[2] الديوان، ص١٤ .

وفي موقع آخر من الديوان يخاطب عازفاً أعمى مؤكداً أنه حتى من يُبْصر في هذه الحياة لا يرى فيها سوى البؤس والسراب، ولا يجتني منها سوى الشّوك والتراب . يقول في قصيدة عنوانُها «إلى عازف أعمى»[1]:

هَوِّنْ على قلبك المُعَنّى إن كنتَ لا تُبْصِرُ النجومْ

ولا ترى الغابَ وهو يلْغُو[2] وفوقه تَخْطُر الغيومْ

فكلُنا بائسٌ، جديرٌ برأفةِ الخالق العظيمْ

وكلُنا في الحياة أعمى يَسُوقُه زَعْزَعٌ عقيمْ

وحولَه تَزْعَقُ المنايا كأنها جَنّة الجحيمْ

فأَسْعَدُ من فيها هو الأعمى، لأنه لا يبصر أَهْوالَها:

ياصاحِ: إن الحياةَ قفرٌ مروِّعٌ، ماؤُه سرابْ

لا يجتني الطّرْفُ منه إلاّ عواطفَ الشوكِ والتُّرابْ

وأسعدُ الناس فيه أعمى لا يُبْصِرُ الهولَ والمُصابْ

ويكشف الشابي عن أنه أمضى حياته مهموماً، متألِّماً في هذا الكون وبما فيه من كائنات ، ولكنَّ شيئاً من السعادة لم يطرق بابه . يقول في قصيدته «صوت تائه»:[3]

---

[1] الديوان، ص٥٥ .

[2] يلغو: يُثَرْثِر أو يتمايل.

[3] الديوان، ص٥٦ .

قضّيتُ أدوارَ الحياة مفكّراً

في الكائنات، مُعذّباً مهموما

فوجدتُ أعراسَ الوجود مآتماً

ووجدتُ فردوس الزّمان جحيما

وحضرتُ مائدةَ الحياة، فلم أجدْ

إلا شراباً آجناً مسموما [1]

فصورةُ الحياة عنده رمزٌ للشقاء والمعاناة:[2]

هذه صورةُ الحياةِ، وهذا

لونُها في الوجود، من أمْسِ أمْسِ

صورةٌ للشقاء دامعةُ الطّرفِ

ولونٌ يَسْوَدُّ في كلِّ طِرْسِ [3]

وإذا كانت نظرته إلى الحياة بهذه السَّوْداوي ة القاتمة، فكيف هي لديه مع الموت الذي خطف فتاة أحلامه، وفارسةَ هُيامه، تاركاً إيّاه في أول الطريق يتجرّع مرارة الأسى واللوعة، ويعيش حالة فراغٍ واكتئاب، وقلقٍ وتبرّمٍ مما يحيط به؟ !إنه الموت تخرج من بين ثناياه الحياة:[4]

---

[1] الشراب الآجن: الذي تغيّر لونه وطَعمهُ.

[2] الديوان، من قصيدة (شجون)، ص٧٣.

[3] الطِّرس: الصحيفة التي يُكتب عليها.

[4] انظر قصيدته (إلى الموت)، ص٥٣ ـ ٥٤.

إلى الموت يابن الحياة التعيس ففي الموت صوتُ الحياة الرّخيمْ

❖ ❖ ❖

إلى الموت إن حاصرتْكَ الخطوبُ وسدّتْ عليك سبيلَ السلامْ

ففي عالَم الموتِ تَنْضُو الحياةُ رداءَ الأسى، وقِنَاعَ الظّلام [1]:

وتبدو، كما خُلِقَتْ غَضّةً يفيض على وَجْهِها الابتسامْ

تُعيدُ عليها ظلالَ الخلودِ، وتهفو عليها قلوبُ الأنامْ

❖ ❖ ❖

والموت لديه طيفُ خلودٍ جميل، والنصفُ الآخر من الحياة الذي ليس فيه حُزْنٌ أو جزَعٌ:

هو الموت طيفُ الخلود الجميلُ

ونصفُ الحياة الذي لا يَنُوحْ

لقد عاش الشابي أولى تجاربه مع الموت عندما فقد الفتاة التي أحبَّها، فكان ذلك م بعث أحزانه حتى غدا تمثالاً للشجون . يقول في قصيدته «جدول الحب بين الأمس واليوم» [2]:

أجفانُ فاتنةٍ تراءتْ لي على فجر الشبابْ

كعروسةٍ من غانيات الشعر في شَفَقِ السّحابْ

---

[1] تَنْضُو: من نضا ـ يَنْضو ـ نَضْواً، إذا نزع الشيء أو خلعه أو أزاله، وتنضو الحياة رداء الأسى، أي تزيله أو تخلعه.

[2] الديوان، ص ص ٤٩ ـ ٥١ .

ثم اختفتْ خَلْفَ السماءِ وراءَ هاتيكَ الغيومْ
حيث العذارى الخالداتُ يَمِسْنَ ما بين ا لنّجومْ
ثم اختفتْ أوّاهُ ! طائرةً بأجنحة المَنُونْ
نحو السماءِ، وها أنا في الأرضِ تمثالُ الشجونْ !

ويرى في اليأس موتاً ينتهي بصاحبه إلى الشقاء، وفي ذلك يقول :[1]

واليأس موتٌ، ولكنْ موتٌ يُثيرُ الشّقاءْ

وفي موضعٍ آخر من الديوان :[2]

والموتُ كالمارِدِ الج بّار منتصبٌ
في الأرض يَخْطِفُ من قد خانه

وما الوجود عِنْدَه إلا ذلك الشقاءُ "السَّرمديّ"، تزول فيه ملذّاته، وبحرٌ من الدّمعِ تَغرق فيه الأماني، ويتلاشى صداها بين تموّجاته، ولهيبٌ يلتَهِمُ مسرّات الحياة، ولا يُبْقي إلا على اللّوعة والأسى . إنها أشواق الشاعر التائهة في وجود مكبّل بالقيود :[3]

لم أجدْ في الوجود إلا شقاءً سرمديّاً، ولَذّةً مُضْمَحِلّةْ
وأمانيّ، يُغرِق الدّمعُ أحلاها، ويُفْنِي يَمُّ الزّمان صداها
وأناشيدَ، يأكلُ اللهيبُ الدّامي مسّراتِها، ويُبْقي أساها

---

[1] انظر الديوان، قصيدة «نظرة في الحياة»، ص ١٤ ـ ١٥ .

[2] انظر قصيدة « غرفة من يَمّ»، ص١٥ – ١٦ .

[3] الديوان، الأشواق التائهة، ص٧٥ ـ ٧٦ .

وفي سكون الليل يتوجّه الشابي بالنداء إلى الكواكب، وقد أفقده الألمُ صوابَه، مُرْخياً العِنانَ لمخيّلته تسبح في فضاءات الحياة الدنيا، فيأتيه «صوت من السماء»[1] ينساب بين المروج الخُضر، محرِّكاً صداه السكونَ، إيذاناً بميلاد فجرٍ جديد، يقول:

في الليل ناديتُ الكواكبَ ... متأجِّجَ الآلام والآرابِ
«الحقلُ يملكُه جبابرةُ الدُّجى ... والرّوضُ يسكنُه بنو الأربابِ»
«والنهر للغُولِ المقدّسَةِ التي ... لا ترتوي، والغابُ للحطّابِ»
«وعرائسُ الغاب الجميلِ هزيلةٌ ... ظمْأى لكلِّ جنى، وكلِّ شرابِ»
«ما هذه الدنيا الكريهةُ؟ وَيْلَها ! ... حَقّتْ عليها لعنةُ الأحقابِ!»
الكونُ مُصْغٍ، يا كواكبُ، خاشعٌ ... طال انتظاري، فانطقي بجوابِ؟

❖ ❖ ❖

فسمعْتُ صوتاً ساحراً متموِّجاً ... فوق المروج الفيْحِ، والأعشابِ[2]
وحفيفَ أجنحةٍ ترفرفُ في ... وصدى يَرِنُّ على سُكونِ الغابِ
«الفَجْرُ يُولَدُ باسماً، متهلِّلاً ... في الكون، بين دُجُنّةٍ وضبابِ»[3]

٤ـ من وجدانياته:

تتوزع وجدانيات الشابي بين الغزل والرِّثاء.

أما الغزل فمادّتُه المرأة التي شُغِلَ بها، وكانت مصدر فرحِه

---

[1] عنوان قصيدة للشاعر، انظر الديوان، ص١٠٧.

[2] الفيْح: جمع مفرده فيحاء، أي المَرْجُ الواسعُ المُنْتشر.

[3] الدُّجُنة: الظُّلمة الشديدة، يقال: ليلةٌ دُجُنّة، أي شديدة الظُّلمة.

وحُزْنه، وقد ارتسمت معالم هذا اللّون من الشعر مبكّراً في شعر الشابي، في مرحلة لم تكن فيها تجربتُه العاطفية والشعرية قد نضجت، حيث تعلّق بفتاة ولم يكن قد أتمّ الحادية عشرة من عمره، لكنَّ القدر الذي كان دائماً على موعد مع ما يُخبِّئُه له خطف منه حُلْمَه، وتركه وحيداً يعاني مرارة الأسى والنقمة بآن .. الأسى على فقدان من أحبّ، والنقمة على حوادث الدّهر وصُروفه.

وما بين الأسى والنقمة نضجت تجربة الشابي العَاطفية، وأخذ حُبُّه منحىً أكثر رومانسيةً . يقول في قصيدته «الجمال المنشود»[1] مخاطباً عذارى أفروديت[2]

يا عذارى الجمال والحبِّ

بل يا بهاءَ هذا الوجودِ !

قد رأينا الشّعورَ مَنَسدِلاتٍ

كلّلتَ حَسَنَها صباحَ الورودِ [3]

ورأينا الجفونَ تَبَسَم أو تحلَمَ

بالنّورِ، بالهوى، بالنشيدِ

ورأينا الخدودَ ضَرّجَها السَحَر

فآهاً من سحر تلك الخدودِ !

---

[1] الديوان، ص٧٣-٧٤.

[2] أفروديت - Aphrodite: إلهة الجمال والحبّ عند الإغريق، وتسمى أمّ إيروس، وهي فينوس الرّومان، وعشتروت الفينيقيين، والزهرة عند العرب . انظر المنجد في الأعلام، لويس معلوف، ط٢٣، ص٥٥.

[3] الشعور: جمع مفردُه الشَعْر، والشعر المنسدل، أي المُرخى والمُرْسَل من دون أن يكون مربوطاً . والصِباح (بكسر الصاد): جمع مفرده صَبيح، أي الوجه الوضيءُ أو الجميل.

ورأينا الشَفاه تبَسَم عن دنيا

من الوَرَدِ غضّةٍ، أَمَلَودِ [1]

ورأينا النّهودَ ته تَزَ كالأزهار

في نشوةِ الشباب السّعيدِ

فِتْنةَ تَوقظَ الغرام وتَذكيَه

ولكنَ ماذا وراءَ النّهود؟

ويرى الشابي في قصيدته «طريق الهاوية »[2] أن صورة الكون تكتسب حُسْنها وجمالها من حمرة خدود الحسناوات، إذْ لولا حمرةُ خدودهن لكانت صورة الوجود مشوَّهة:

صورةَ للوجود شوَهاءَ، لولا

شَفَقَ الحَسَنِ فوق تلك الخدودِ

وينقلُك الشابي في قصيدته : «صلوات في هيكل الحبّ »[3] إلى عالمه الخاص، عالَم حُبِّه الأوّل، راسماً صورةَ من أحبّها بلغة انسيابيّة، سهلة في ألفاظَها، محكمة السبْك في تراكيبها، عميق ةً في مدلولًاتها، معبِّرةً عن مدى ارتباط الَشاعر بمحبوبته وتعلّقه بها إلًى درجة القداسة..[4]، وهذا ما يعكسه قوله:

---

[1] الأملود: الناعم أو الليّن.

[2] انظر الديوان، ص٧٤ ـ ٧٥.

[3] انظر ديوانه، ص ص ٨١ ـ ٨٤.

[4] يشير بعض دارسي شعر الشابي إلى أن فارسة قصيدة «صلوات في هيكل الحب» فتاة إنكليزية أقامت مدة في مدينة توزر التونسية لالتقاط بعض المناظر الطبيعيّة فيها، فرآها الشاعرُ فاستهواه جمالها فرفع إليها تلك القصيدة.

أنتِ ما أنت؟ رَسْمٌ جميلٌ

عبقريٌ من فَنِّ هذا الوجودِ

فيكِ ما فيه من غُموضٍ وعمقٍ

وجمالٍ مقدّسٍ معبودِ

ويرى فيها أيضاً ما يعيدُ إليه ما افتقده من السّعادة في حياته، كما يرى فيها الحياة التي تعيد إليه ربيع شبابه :

أنتِ تُحْيينَ في فؤاديَ ما قد

مات في أَمْسِيَ السّعيدِ الفقيدِ

أنتِ أنتِ الحياةُ في رِقّةِ الفجر

في رونقِ الربيعِ الوليدِ

أنتِ قُدْسِي ومَعْبدي وصباحي

وربيعي ونشوتي وخلودي

لذا يُناشدُها أنْ تُنْقذَه مما حلّ به من الأسى :

أنقذيني من الأسى، فَلقد

أمسَيْتُ لا أستطيعُ حَمْلَ وجودِيْ

أنقذيني، فقد سئمتُ ظلامي

أنقذيني، فقد مَلَلْتُ ركودي

إنّها «الجنة الضائعة»[1] التي أمضى فيها أجملَ أيامِه مع الحبيبة،

[1] عنوان قصيدة للشاعر في ديوانه، ص ص٩٩ ـ ١٠٢ .

يتذكّرُها الشابيّ بأدقِّ تفاصيلها :

كَمْ من عهودٍ عَذْبةٍ في عَدْوَةِ[1] الوادي النّضيرْ

فِضّيةِ الأسحار مُذْهبَةِ الأصائلِ والبُكورْ

كانت أرقّ من الزّهور، ومن أغاريدِ الطيور

وألذّ من سِحْرِ الصِّبَا في بسمةِ الطفل الغريرْ

قضّيتُها ومعي الحبيبةُ لا رقيبَ ولا نذيرْ

إلا الطفولَةَ حولَنا تلهو مع الحَبِّ الصغير

وبحَسْرة يتأوّه على تلك الأيّام التي ضاعت منه، موصِّفاً ما آلت إليه الأمور:

آهٍ! توارى فجريَ القُدْسيُ في ليلِ الدّهورْ

وفنى، كما يفنى النشيدُ الحلْوُ في صمت الأثيرْ

أوّاه! قد ضاعت عليّ سعادةُ القلب الغريرْ

وبقيتُ في وادي الزّمانِ الجَهْمِ أدْأَبُ في المسيرْ

وأدوسُ أشواكَ الحياةِ بقلبيَ الدّامي الكسيرْ

وأرى الأباطيلَ الكثيرة والمآثمَ والشرورْ

وتصادُمَ الأهواءِ بالأهواءِ في كلِّ الأمورْ

---

[1] عِدْوة الوادي: المكان المرتفع منه أو شاطئُه أو جانبُه..

ويعودُ إلى أيام طفولته مصوِّراً حياتَه التي عاشها حراً طليقاً من دون قيود، وكيف أصبحَ اليومَ مكبَّلاً مُرْهَقَ الأعصاب لا يقوى على فعل شيء:

قد كنتُ في زمن الطفولة والسّذاجة والطُهورْ
أحيا كما تحيا البلابلُ والجداولُ والزهورْ
لا تَحْفَلُ، الدنيا تدور بأهلها، أو لا تدورْ
واليوم أحيا مُرْهَقَ الأعصاب، مشبوبَ الشُعورْ
تمشي على قلبي الحياةُ، ويزحفُ الكونُ الكبيرْ

ومن عالم الحب والغزل إلى عالم رثاء الأحبة.. أجنحة الشاعر يحلِّق بها في فضاء الكون، فالمصدرُ واحدٌ : الأب الذي أحاطه بالرعاية، والمرأة التي أحبَّها، ولكنّ الحالة مختل فة، فمع حضور الرعاية والحبّ يكون الفرح والسرور، ومع فقدانهما يكونُ البكاء والرثاء.. ذلك هو حال أبي القاسم الشابي الذي أمضى شطراً من حياته حزيناً بائساً، لا سيّما عندما داهمه المرض الذي أودى بحياته لاحقاً، وعندما فُجع بوالده، وبالفتاة التي تعلّق بها في ميْعة الصِّبا.

لقد بات كلُّ شيءٍ في هذا المنحى من وجدانياته سراباً لا قيمة له في الحياة الدّنيا التي لم تُخَلِّف له من أمْسه - كما يقول - إلا اللّوعة تَكْتُمُ عليه أنفاسه. يقول في قصيدته «الدموع»[1]:

ضاعَ أمسي وأينَ مِنّيَ أمسي؟
وقضى الدّهرُ أن أعيشَ بِ يأسِي

---

[1] الديوان، ص٣٥.

لم تخلّف لي الحياةُ من الأمسِ

سوى لوعةٍ تَهُبُّ، وتُرْسِيْ

تتهادى ما بين غَصّات قلبي

بسكونٍ وبين أوجاعِ نَفْسِيْ

كخيالٍ من عالَمِ الموت، يَنْسابُ

بصمتٍ ما بين رمْسٍ ورَمْسِ

إنَّها مرارةُ الحياة تجرَّعَ أكوابها الشابيُّ بفقد من أ حب، فمزّقَتْ أشواكُها زنابقَ نَفْسه. يقول:

ناولتْني الحياةُ كَأساً دِهاقاً

بالأماني، فما تناولْتُ كَأْسيْ

وسقَتْني من التّعاسةِ أكواباً

تجرّعْتُها، فياشُدّ تَعْسيْ

إنّ في روضةِ الحياةِ لأشواكاً

بها مُزِّقَتْ زنابقُ نَفسيْ

وفي «أغنية الأحزان»[1] تلك القصيدة المُوشَّحة مَلَّ قَلْبُه البكاء، وبات لا يسمع ألحان الطيور بين أزهار الربيع،ولا ابتسامات الحياة التي تُسفِر عما أحلَّه الله لعباده. يقول في المقطعين التاليين:

غَنِّنيْ أنشودة الفجر الضّحُوكْ أيّها الصَّداحْ !

فلقد جرّعني صوتُ الظلام

[1] الديوان،ص٣٦.

ألماً علّمني كُرْهَ الحياة

إن قلبي ملّ أصْداءَ النَّواحْ غنِّني يا صَداحْ !

إنّ مَنْ أصغى إلى صوتِ المَنُونْ وصدى الأجداثْ

ليس تستهويه ألحانُ الطيورْ

بين أزهار الربيعِ الساحِرةْ

وابتسامات الحياةِ السافرةْ عن حلالِ اللهْ

ويخاطب في قصيدته «الذكرى»[1] قَلْبه الذي أضناه فراق الأحبّة، داعياً إياه إلى التجلُّد على فقْد من أحبّ:

يا أيُّها القَلْبُ الشجيُّ ! إلام تُخْرِسُك الشّجونْ

رُحْماك قد عَذّبْتنيْ بالصّمْتِ والدّمعِ الهَتُونْ

مات الحبيبُ، وكُلُّ ما قد كُنْتَ ترجو أنْ يكونْ !

اصبرْ على سُخْطِ الزّمانِ، وما تُصرِّفُه الشؤون

وفي «فجاج الآلام»[2] يجد الشابي حتى ابتسامة القلب أضحت مبتلّةً بالدّموع:

يا لابتسامة قلبٍ مطلولةٍ بدموعهْ

غاضَتْ، فلم تَبْقَ إلا الدموعُ بين ضلوعهْ

وأن الحياة كُلّها باتت كئيبةً، داعياً إلى إعادة الحياة إلى الحياة:

---

[1] الديوان، ص٣٨ ـ ٣٩.

[2] عنوان قصيدة له في الديوان،ص ص٤٦ ـ ٤٩ .

يا طائرَ الشعر روِّحْ على الحياةِ الكئيبةْ

وامْسَحْ بريشك دَمْعَ القلوبِ، فهي غريبةْ

وعَزِّها عن أساها فقد دَهَتْها المصيبَةْ

وأنت رُوحٌ جميلٌ بين الهضاب الجديبةْ

فانفخْ بها من لهيبِ السماءِ رُوحاً خَضيبَةْ

وابْعَثْ بِسِحْرِك في قلبِها ضَرامَ الشبيبةْ

ومما ترك أثراً كبيراً في نَفْسِ الشاعر موتُ والده الذي أحدث هزةً عنيفةً في حياته، كان من ارتداداتها أنْ وجد الشابيُّ نَفْسَه فَجأةً مثقلاً بالأعباء، وكيف لا، وقد فقد مَلاذه الأول إذا ما ادْلهمت عليه الخطوب، وهو ما صرَّح به في قصيدته «ياموت»[1]، حيث يقول:

يا موتُ قد مزّقتَ صدري وقصمتَ بالأرزاء ظهري

وفجعتني فيمن أُحبُّ، ومَن إليه أبُثُّ سرِّي

وأعدْه فجري الجميلَ، إذا ادْلهمّ عليّ دَهْرِيْ

٥ـ موضوعات الشابي النفسية:

تعددت موضوعات الشابي النفسية وتن وعت، وهي بمختلف أطيافها تعبِّر عما كان يختلِ جُ في أعماقه من أحاسيس ومشاعر . فمن الكآبة التي لازمته طيلة مراحل حياته وحتى وفاته إلى الطفولة

[1] الديوان، ص ص ٦٤ ـ ٦٦.

يستعيد بها وهج الحياة، ومن عالم الشعر تُردِّدُ أصداءه أمواج البحر إلى الأمومة يملأُ قلْبَها الحنان إلى وليدها .

أما الكآبة فهي تلك المناجاة التي تقتنِصُ منه أنينَه، وتدعُه و حيداً في عالَم الشجون والأحزان . يقول في «مأتم الحبّ»[1]

في الدّياجي وكم أناجيْ

مَسْمَع القَبر، بِغصّاتِ نحيبي وشجونيْ

ثم أُصغي علَّني أسمعُ ترديد أنيني

فـــأرى صوتي فريـــدْ

وفي «الكآبة المجهولة »[2] يجد أنْ لا أحد يحمل مِعْشارَ ما يحمله من الكآبة:

وليس في عالم الكآبة مَن يَحملُ مِعْشارَ بَعْضِ ما أَجِدُ

وكآبَتُه شعلةٌ مؤجَّجة تصهر المشاعر:

كآبتي ذاتُ قَسوةٍ صهرت مشاعري في جَهنَّمِ الألمِ

كآبتي شعلةٌ مؤجَّجةٌ تحت رماد الكونِ ت ستعرُ

وبينما كآبة الناس لها قرار، نجد أنْ كآبته لا قرار لها :

كآبةُ الناسِ شعلةٌ، ومتى

---

[1] الديوان، ص ١٨ .

[2] الديوان، ص١٩ .

مرّت ليالٍ خَبَتْ مع الأمدِ

أما اكتئابي فَلَوعةٌ سَكَنتْ

روحي، وتبقى بها إلى الأبدِ

ومع «الطفولة»[1] يستعيد حُلُمَ حياته، حيث الدموع البريئة والطموح الذي يخلو من أي شكل من أشكال الكآبة والتعاسة . يقول الشابي:

إن الطفولة حِقْبةٌ شعرية بشعورها

ودموعِها وسرورِها وطموحِها وغرورِها

لم تمشِ في دنيا الكآبة والتعاسة والعَذَابْ

فترى على أضوائها ما في الحقيقة مِنْ كِذابْ

وإلى عالم الشعر ينقلك فيه الشابي إلى جمال أضواء الغروب وهَمْس أجواء المساء وإلى نايِ أحلامه التي وهبَت قلبَه الحبّ والسعادة، محافظةً على حياته من الهلاك . يقول في قصيدته «يا شعر»[2]:

يا شعرُ ! أنتَ جمال أضواء الغروبِ الساحرةْ

يا همسَ أمواجِ المساءِ الباسمات الحائرةْ

يا نايَ أحلامي الحبيبةِ ! يا رفيق صبابتي

---

[1] عنوان قصيدة للشاعر في ديوانه، ص٤١ .

[2] الديوان، ص ص ٢٦ ـ ٣١.

لولاكَ مُتُّ بلوعتيْ وبِشَقوتي وكآبتي

فالشعر ذلك الطائر الذي انطوت نَفْسُ الشاعر فيه :

فيكَ انطوتْ نفسي، وفيك نفخْتُ كلَّ مشاعري

فاصدحْ على قممِ الحياةِ بلوعتي، يا طائري

وفي الأمومة يجد الشابي له ملاذاً في حنوِّها وحنانها، ويرى أنها الحرم الذي تكتسب به الحياةُ قداسَتَها . يقول في «حَرَم الأمومة»[1] :

الأمُّ تَلْثُم طفلَها، وتضمُّه

حَرَمٌ، سماويُ الجمالِ، مُقدّسُ

حَرَمُ الحياة بظهرِها وحنانِها

هَلْ فوقَه حَرَمٌ أجلُّ وأقدسُ؟

بوركْتَ يا حَرَم الأمومة والصِّبا

كم فيك تكتمل الحياةُ وتَقْدُسُ!

---

[1] الديوان، ص١٢٤ ـ ١٢٥ .

الجانب الرومانسي في شعر الشابي

عرفت تونس نقلةً نوعيةً في الشعر والأدب مع انتشار الأدب الرومنطيقي - أو كما يسمى الرومانسي - الذي وَفَد إلى المنطقة من الغرب مطلع القرن العشرين، وبرز على إثر ذلك عددٌ من حملة القَلَم ممن تأثروا بالرومانسية الغربيَّة التي كان من روّادها في الغرب «غوته، ولامرتين، وأوسيان، وغيرهم».

على أنّ رومانسية الشّابي التي اصطبغ بها شعْرُه كانت تخرجُ في كثيرٍ من الأحيان عن مألوف شعراء الرومانسية الغربيّة من حيث امتزاجُها بحبِّ الوطن، وبالسَّعي إلَى تحريره من ربقة المستعمرين ممّن أحْكَمُوا قبضتَهم عليه رَدْحاً من الزمن، وحاولوا طَمْسَ هويته العربية، وتذويبَ انتمائه القومي، ومَحْوَ أيّ أثرٍ له.

لقد عاش الشابيُّ هموم وطنه وآلام شعبه، فأجاد التصوير، وأبدع في التعبير عما يعتمر في نفسه، وكان رسّاماً بارعاً أطلق العنان للحرف في صياغة عالمه الساحر، متحرِّراً من القيود، متجاوزاً كلَّ حدٍّ يكبِّل انطلاقته أو يحول دون بعث الحياة في هذا العالم الرَّحْب.

بهذه الروح الرومانسية المتوثِّبة يتوجه إلى الإنسان في قصيدته «يا بن أمي»[1]، داعياً إياه إلى التمرد وعدم الاستسلام للمجهول. يقول:

خُلقتَ طليقاً كطيف النسيم، وحراً كنور الضحى في سَماهْ

فمالك ترضى بذلّ القيود، وتحني لمن كبّلوك الجباهْ

[1] انظر الديوان، ص٦٠.

ألا انهضْ وسرْ في سبيل الحياة، فَمَنْ نام لم تنتظرْه الحياةْ

ولا تخشَ ممّا وراء التّلاعِ فما ثَمّ إلاّ الضحى في صِباهْ

إلى النّورِ، فالنورُ عَذْبٌ جميلٌ إلى النّورِ، فالنورُ ظِلْ الإله

وفي قصيدته «صلواتٌ في هيكل الحب »[1] تتدافع الصور لديه في مشهدٍ رومانسيٍّ قلَّ نظيرُه حتى لدى مُبدعي المذهب الرومانسيّ:

عذبةٌ أنت كالطفولة، كالأحلامِ كاللّحنِ، كالصباح الجديدِ

كالسماء الضّحوكِ، كالليلةِ القَمْراءِ كالورد، كابتسام الوليدِ

يالها من وداعةٍ وجمالٍ وشبابٍ منعّمٍ أمْلَودِ !

يالها من طهارةٍ، تبعثُ التقديسَ في مُهجة الشقيِّ العنيدِ !

يالها رقّةً تكاد يرفُ الوردُ منها في الصخرة الجُلْمودِ !

وهكذا، وعلى هذه الشاكلة تحتشدُ الصور في أبيات القصيدة الثمانية والستين بإيقاع إيحائي بعيد عن الصَّنْعة والتكلُّف .

---

[1] الديوان، ص ص ٨١ ـ ٨٤.

الجانب الإنساني في شعر الشابي

إنّ عالم الشابي هو ذلك العالم الرَّحْب الذي يطمح إلى رؤية أبنائه وقد أبعدوا عنه الحروب، وأوقفوا فيه سفك الدماء، وأزاحوا عنه الأسى والشقاء، وهو ما لخّصه في قوله[1]:

فما المجد في أن تسكرَ الأرضَ بالدّما

وتركبَ في هيجائها فَرَساً نَهْدا

ولكنّه في أن تَصُدّ بهمّةٍ

عن العالم المرزوء، فيضَ الأسى صَدّا

وينظر إلى أحوال الناس، فيتألم لما يحملونه من الآلام، داعياً إلى مشاركتهم همومَهم[2]:

يا رفيقي! أما تفكّرتَ في ال ناس، وما يحملون من آلام؟

ويسوءُه ما يُخبِّئُه الظلام من المآسي والآهات التي تزيد من أوجاع المستضعفين من اليتامى والمساكين، حيث يقول:

كم بقلبِ الظلام من أنّةٍ

تهفو بغصّات صبّيةٍ أيتامِ !!

فإذا سرّني من الفجر نورٌ

ساءَني ما يَسِرُّ قلبَ الظلامِ

---

[1] انظر الديوان، ص٣٨.

[2] انظر الديوان، قصيدة «يا رفيقي»، ص٥٢

وتهتز مشاعره الإنسانية لحال كلِّ بائسٍ أو تائه، إذ يقول[1]:

وبائسٍ، مات في لَبْه المرامُ الوحيدُ

وتائهٍ، ضاع بين القَفارِ، وهو فريدُ

حتى طوتْه من العاصفاتِ ريحٌ شَرودُ

وينادي طائر الشعر لديه أن يمسح بريشه ما في القلوب من كآبةٍ، معزّياً كلَّ من حلّت به مصيبةٌ أو ألمّت به كارثة:

يا طائر الشعر ! روِّحْ على الحياة الكئيبةْ

وامسحْ بريشكَ دمع الـ ـقلوب، فهي غريبةْ

وعزِّها عن أساها الـ فقد دهتْها المصيبةْ

[1] انظر الديوان، قصيدة «في فِجاج الآلام»، ص ص ٤٦-٤٩.

خاتمة

أخيراً لم يكن من قبيل المصادفة أن يتخيّر أبو القاسم الشابي لديوانه عنوان "أغاني الحياة"، فهو ـ على الرّغم من حالة الأسى والكآبة التي كانت تطغى عليه ـ كان شديد التعلّق بالحياة التي يشكّل الصراع مع نقيضها الذي هو الموت، وتحمّلُ أعبائها وعدمُ الاستسلام لما تفرزه من آلام، تعبيراً عن التعلّق بها ؛ إذ لا قيمة للحياة من دون مواجهة التحديا ت التي تعترض مسيرة الإنسان فيها، فبالمواجهة يُثبتُ الإنسانُ ذاتَه، ويكتسب حضوره، ويكون أكثر قدرة على النهوض بأعباء الحياة، وعلى تحمُّل مسؤولياته الوطنية والاجتماعية، كما يكون أمضى عزيمةً على مواصلة مسيرته الأخلاقية، وأداء رسالته الإنسانية.

وما يؤكد تشبّثَ الشابي بالحياة وتعلُّقَه بها ذكْرُهُ كلمةَ الحياة ومشتقاتها في ديوانه أكثر من /٣٧٣/ مرة؛ بينما لم يتجاوز ذكر كلمة الموت ومشتقاتها في الديوان نفسه الـ /١٢٠/ مرة.

فمع الشابي كانت الحياة ثمرةَ عطاء دائم ومتجدِّد، وكان الشعورُ بها مصدرَ إلهام فجّر لديه مكامن الإبداع التي أثْرَتْ الحركة الأدبية المعاصرة في تونس، وجعلتها حالةً فريدة في عالم الشعر والأدب، فاستجابةُ القدر لدى الشابي رهنٌ بالشعب الذي يملك إرادة الحياة.. يقول:

إذا الشعب يوماً أراد الحياةَ

فلابُدّ أن يستجيب القدرْ [1]

والنفوس الطَّمُوحةُ، التّواقة للحياة وحدَها التي يستجيب لها القدر في عالم الشابي:

إذا طَمحَتْ للحياة النفوسْ

فلابُدّ أن يستجيب القدرْ [2]

---

[1] الديوان، ص١١٣

[2] الديوان، ص١١٦

مختارات من شعر الشابي

تونس الجميلة

لستُ أبكي لِعَسفِ ليلٍ طويلٍ

أو لرَبْعٍ غدا العَفَاءُ مَراحَهْ [1]

إنما عَبْرتي لخطبٍ ثقيلٍ

قد عرانا، ولم نَجِدْ من أزاحهْ [2]

كلّما قام في البلادِ خطيبٌ

موقظٌ شعبَه يُريدُ صلاحَه

أخْمدوا صوتَه الإلهيّ بالعَسْـ

ـفِ، أماتوا صَدَاحَهُ ونُواحَهْ [3]

هكذا المخلِصُون في كلّ صَوبٍ

رَشَقاتُ الرّدى إليهم مُتَاحهْ

غير أنّا تناوبَتْنا الرّزايا

واستباحتْ حِمَانا أيّ استباحهْ

---

[1] العفاء: الدّارس من الدّيار.

[2] عرانا: أصابنا.

[3] العَسف: الظلم والجور.

أنا يا تونسُ الجميلةُ في لُجّْ

الهوى قد سبحْتُ أيّ سِباحةْ

شرِّعتي حُبُّكِ العميقُ، وإني

قد تذوّقْتَ مُرّه وقَرَاحَةْ [1]

لا أُبالي وإن أُرِيْقَتْ دمائي

فَدِماءُ العُشّاق دوماً مُبَاحةْ

إنّ ذا عصرُ ظُلَمةٍ غيرَ أنيّ

مِنْ وراءِ الظّلام شِمْتُ صباحةْ [2]

ضيّع الدّهرُ مَجْدَ شَعبِيْ، ولكنْ

ستردُّ الحياةُ يوماً وِشاحةْ [3]

---

[1] القَراح: الخالص من كل شيء.

[2] شِمْتُ: أبصرْتُ.

[3] الوشاح: السيف (رمز القوة والعافية).

زئيرُ العاصفة

تُسائلُني: «ما لي سكتُّ، ولم أُهبْ

بقومي، ودَيْجورُ المصائب مُظلمُ »[1]

«وسيلُ الرّزايا جارِ فٌ، مُتَدَفِّعٌ

غَضُوبٌ، ووجْهُ الدَّهرِ أَرْبَدُ، أَقْتَم؟ »[2]

❖ ❖ ❖

سكتُّ، وقد كانت قناتيَ غَضّةً

تُصيخُ إلى همْسِ النّسيم، وتَحلُمُ [3]

وقلْتُ، وقد أصغَتْ إلى الرّيحِ مَرّةً

فجاش بها إعصارُه المتهزِّمُ :[4]

«أرى المجدَ معصوبَ الجبينِ مُجَدّلاً

على حَسَكِ الآلام، يَغْمُره الدّمُ »

❖ ❖ ❖

---

[1] لم أُهب بهم: أي لم أَدْعُهم، والدّيجور: الظلام.

[2] متدفِّع: مندفع، أَرْبَد: مكدَّر أو مُكْفَهِرٌ، أَقْتَم: مُغْبَرّ.

[3] تُصيخُ: تُصغي.

[4] جاش: هاجَ، الإعصارُ المُتَهزِّم: الذي يُصدر صوتاً.

فيا أيُها الظُلّمُ المُصَعّرُ خَدّه

رويدَكَ! إن الدّهرَ يبني ويَهْدِمُ [1]

سيثأرُ للعِزِّ المُحَطّمِ تاجُه

رجالٌ إذا جاش الرّدى فهُمَ هُمَ

رجالٌ يَرونَ الذّلّ عاراً وسُبّةً

ولا يَرَهَ بُون الموتَ، والموتُ مُقْدِم

❖ ❖ ❖

[1] المصعِّر خدّه: الذي يميلُه تكبُراً.

إلى الطاغية

يقولون: «صوتَ المستذلَينَ خافتَ

وسَمَعَ طَغاةِ الأرض (أطرش) أَضخَمَ

وفي صَيحةِ الشّعب المَسخَرِ زَعزَعَ

تَخرّ لها شَمّ العَروش، وتَهدَمَ

ولَعلَعةَ الحقّ الغَضوب لها صَدَى

ودَمدَمةَ الحَرَب الضّرُوسِ لها فَمَ [1]

إذا التفّ حول الحقّ قَومَ، فإنّه

يَصرَم أحداثَ الزّمانِ ويَبرِمَ [2]

❖ ❖ ❖

لك الويل يا صَرَحَ المَظالمِ من غدٍ

إذا نهض المستضعَفونَ، وصمّموا !

إذا حَطّمَ المَستَعبَدون قيودَهم

وصَبّوا عليه السّ خَطَ أيّانَ تَعلَمَ .!

---

[1] الحرب الضَّروس: الشديدة المُهلِكة.

[2] يُصَرِّم: يُقَطِّع.

أغرّكَ أنّ الشعبَ مَغْضٍ[1] على قَذىً

وأن الفضاءَ الرَّحْبَ وَسْنانُ، مُظْلِم؟[2]

ألا إنّ أحلامَ البلاد دفينةٌ

تَجَمْجِمَ في أعماقِها ما تَجَمْجِمَ[3]

ولكنَ سيأتي بعد لأْيٍ نَشُورَها

وينبَثِقَ اليومَ الذي يترنّمَ

---

[1] المُغضي على القَذى: أي الذي يصبر على الأذى.

[2] الوَسْنانُ: النائم من دون استغراق في نومه

[3] تُجَمجِم: تُخفي.

أيُّها الحُبّ

أيها الحُبْ! أنتَ سرِّ بلائي
وهمومي، ورَوْعتي، وعَنائي
ونُحولي، وأَدمُعي، وعَذابي
وسقَامي، ولوعتي، وشقائي

❖ ❖ ❖

أيُّها الحبُ! أنتَ سرِّ وجودي
وحياتي،وعِزّتي، وإبائي
وشُعاعي ما بين ديجورِ دَهْري
وأَليفي، وقُرّتي، ورَجائي
يا سُلافَ الفؤاد! يا سرَّ نفسي
في حياتي، يا شدّتي! يا رَخائي!
أَلَهيبٌ يثورُ في روضة النّفْس
فيطغى، أم أنتَ نورُ السمّاء؟

❖ ❖ ❖

أيُّها الحُبْ قد جَرَعْتَ بك الحُزْ
نَ كؤوساً، وما اقتنصْتَ ابتغائي
فبَحقِّ الجمال ، يا أيُّها الحُـ
ـبْ حَنانَيْكَ بي! وهوْنْ بلائي
ليتَ شِعري! يا أيُّها الحُبْ، قُلْ لي:
مِن ظلامٍ خُلقْتَ أم مِن ضِياء؟

❖ ❖ ❖

الدُّمُوع

ينقضي العيشُ بين شوقٍ و يأسِ
والمُنى بين لوعةٍ و تأسِّ

هذه سُنَّةُ الحيـاة، ونَفْسـي
لا تودُّ الرّحيقَ في كأسِ رِجْسِ

مُلِىءَ الدّهرُ بالخداعِ، فكم قد
ضلَّلَ الرّأسَ من إمامٍ وقَسِّ

كلّما أسألُ الحياةَ عن الحقِّ
تكفُّ الحياةُ عن كلِّ هَمْسِ

لم أجد في الحياةِ لحناً بديعاً
يسْتبيني سوى سكينةِ نفْسي

فسئمتُ الحياةَ إلا غِراراً[1]
تتلاشى به أناشيدُ يأسي

ناولَ تقْي الحياةُ كأساً دِهاقاً [2]
بالأماني، فما تناولتُ كأسي

وسقتْني من التّعاسةِ أكواباً
تَجرَّعْتُها، فيا شدَّ تعْسي !

---

[1]- الغِرار: القليل.

[2] – الدِّهاق: المُتْرَع الممتلئ.

إنّ في روضةِ الحياةِ لأشواكاً
بها مُزِّقتْ زنابقُ نفسي
ضاع أمسي وأين مرِّيَ أمسي ؟
وقضى الدّهْرُ أن أعيشَ بيأسي
وقضى الحُبُّ في سكونٍ مُريعٍ
ساعةَ الموت بين سُخْطٍ وبؤسِ
لم تُخلِّفْ ليَ الحياةُ من الأمس
سوى لوعةٍ تهبُّ وتوْسي
تتهادى ما بين غصّاتِ قلبي
بسكونٍ وبين أوجاعِ نفسي
كخيالٍ من عالَمِ الموت، ينسابُ
بصمتٍ ما بين رَمْسٍ ورمس
تلك أوجاعُ مُهْجةٍ، عذّبتْها
في جحيمِ الحياةِ أطيافُ نَحْسِ

❖ ❖ ❖

مُنَاجَاةُ عُصْفور

يا أيّها الشرّادي المغرِّدُ ها هنا
ثَمِلاً بغِبْطةِ قلبهِ المسرورِ
مُتفوِّلاً بين الخمائل، تالياً
وحيَ الرّبيعِ الساحرِ المسحورِ
غرِّدْ، ففي تلك السهُولِ زنابقٌ
ترنو إليكَ بناظرٍ منظورِ
غرِّدْ، ففي قلبي إليك مودّةٌ
لكنْ مودّةُ طائرٍ مأسورِ
هجرَتْهُ أسرابُ الحمائمِ، وانْبرتْ
لعذابهِ جِنّيّةُ الدّيجُورِ
غرِّدْ، ولا تؤْهِبْ يميني، إنني
مثلُ الطيورِ بمُهجتي وضميري

❖ ❖ ❖

رتِّلْ على سمْعِ الرّبيعِ نشيدَه
واصدحْ بفيضِ فؤادكَ المَسْجورِ[1]
وانشدْ أناشيدَ الجمالِ، فإنّها
روحُ الوجودِ، وسرّةُ المقهورِ
أنا طائرٌ، متغرِّدٌ، مترنِّمٌ
لكنْ بصوتِ كآبتي وزفيري

---

[1] المسجور: الممتلئ أو المنظوم المسترسل.

يهْتاجُ ني صوتُ الطيور، لأنّه مُتدفقٌ بحرارةٍ وطَهُورِ

فإذا استمعتُ حديثَهم ألفيتُهُ غثٌّ يفيض برِلةٍ وفتُورِ[1]

وإذا حضرتُ جموعَهُم ألفيتَنِي ما بينَهم كالبُلْبُلِ المأسورِ

متوحِّداً بعواطفي، ومشاعري، وخواطري، وكآبتي، وسرُورِي

ينتابُني حَرَجُ الحياةِ لأنني منهم بوَهْدة جَنْدَلٍ وصخورِ[2]

فإذا سكتُّ تضجّرُوا، وإذا نطقتُ تذمّرُوا من فلْوَتي وشعوري

❖ ❖ ❖

آهٍ من النّاس الذين بَلَوْتُهم فقَلَوْتُهم في وَحْشتي وحُبوري[3]

ما منهمُ إلا خبيثٌ غادرٌ متربصٌ بالنّاسِ شرّ مصيرِ

ويَوَدُّ لو مَلَكَ الوجودَ بأسرِه ورمى الورى في جاحِمٍ مسجورِ[4]

❖ ❖ ❖

---

[1] الرِّكَّة: الضعف.

[2] الجندل: الحجارة.

[3] بلوتُهم: اختبرتُهم وامتحنتُهم. قلوتُهم: أبغضتُهم.

[4] جاحم: جمر شديد الاشتعال.

يا أيُّها الشرّادي المغرِّدُ ها هنا ... ثَمِلاً بِغِبطَة قلبهِ المسرورا

قبلَ أزاهيرَ الربيعِ ، و غَنِّها ... رَنَمَ الصبّاحِ الضرّاحِ كِ الحَجّ بُورا[1]

واشرَبْ من النّبْعِ الجميلِ الهَتَوِيْ ... ما بين دَوْحِ صنوبرٍ و غديرِ

واترُكْ دموعَ الفجرِ في أوراقِها ... حتى تُوَشّفُها عروسُ النوُرِ[2]

فلربمّا كانت أنيناً صاعداً ... في الليل من متوجِّعٍ مقهور

ذَرَفتَهُ أجفانُ الصبّاحِ مَدامِعاً ... ألاّقةً في دَوْحةٍ وزُهورِ

❖ ❖ ❖

[1] رنم الصباح: صوته

[2] تُرشّفُها: تَرْتَشِفُها.

يا مَـوتُ!

يقول الشابي: «هي صرخةٌ من صرخات نفسي المملوءة بالأحزان والذكريات، وشظيَّةٌ من شظايا هذا القلب المُحَطَّم على صخور الحياة، قلتُها في أيام الأسى التي تلت نكبتي بوفاة الوالد (رحمه الله)»، وقد اخترنا منها الأبيات التالية:

يا موت! قد مزَّقتَ صدري وقصمت بالأرزاء ظهري

وقسوتَ إذ أبقَيْتَني في الكون أَذْرَعُ كلَّ وعْرِ [1]

وفجعْتَني فيمن أُحبُّ، ومن إليه أبُثُّ سِرِّي

وأَعدُه فجري الجميلَ، إذا ادْلَهمَّ عليَّ دَهْري

وأعدُه ورْدي ومِزماري وكاساتي وخمري

وأعدُه غابي ومِحْرابي وأغنيتي وفجري

❖ ❖ ❖

ورزَأْتني في عُمْدتي ومَشُورتي في كلِّ أمرِ

وهدمْتَ صَرْحاً لا ألوذُ بغيره، وهتكْتَ سِتْري

---

[1] أذرع (بالذال): أقيسُ، ويقال ذَرَعَ الثوبَ: إذا قاسه بالذِّراع.

ففقدْتُ روحاً طاهراً شَهْماً يَجِيْشُ بكلِّ خيرِ

وفقدْت كَفّاً في الحياة تَصُدُّ عنِّي كُلّ شَرِّ

وفقدْت رُكْني في الحياة، ورايتي وعِمادَ قَ صْري

❖ ❖ ❖

يا موت ! ماذا تبْتغي منِّي وقد مزَّقتَ صدري؟

ماذا تودُّ، وأنتَ قد سوَّدْتَ بالأحزان فِكْري؟

وتركْتَنِيْ في الكائنات أئنُّ، منفرداً بإصْري؟

وأجوبُ صحراءَ الحياة، أقول «أين تُراه قَبْري؟ »

ماذا تَوَدُّ من المُعذَّبِ في الوجود بغ ير وِزْرِ؟

إن كنتَ تطلبُني فهات الكأسَ، أشْرَبُها بِصَبْرِ

أو كنتَ تَرْقبُني فهات السَّهمَ، أَرْشُقُه بِنَحْري

خُذْني إليكَ، فقد تبخَّرَ في فضاءِ الهمِّ عُمْري

وتهدَّلتْ أغصانُ أيّامي، بلا ثَمَرٍ وزَهْرِ

خُذْني، فما أشقى الذي يَقْضي الح ياةَ بمِثْلِ أمري

❖ ❖ ❖

النبي المجهول

أيهُا الشعبُ ! ليتني كنتُ حطّاباً
فأُهْوي على الجذوع بفأسي !
ليتني كنتُ كالسيّول، إذا سالت
تهُدُّ القبورَ : رَمْساً برمس !
ليتني كنتُ كالرّياح، فأطْوي
كلّ ما يَخرِقُ الزّهورَ بنَحْسي!
ليتني كنتُ كالشتّاء ، أُغشّي
لثّ ما أَذْبلَ الخريفُ بقَرْسِيْ!
ليت لي قوّةَ العواصف، ياشعبي
فأُلْقِي إليكَ ثوْرَةَ نفسي !

❖ ❖ ❖

إنني ذاهبٌ إلى الغاب، ياشعبي
لأقْضِيَ الحياةَ، وَحْدي، بيأسِ
إنني ذاهبٌ إلى الغابِ، علّي
في صميم ال غابات أدفنُ بؤسيْ
ثم أنساكَ ما استطعْتُ، فما أنتَ
بأهلٍ لخمرتي ولكأسي
سوف أتلو على الطيور أناشيدي،
وأُفْضي لها بأشواق نفسي
فهي تَدْري معنى الحياة، وتدري
أنّ مجدَ النفوس يَ قْظَةَ حِ سّ

ثمّ أُفضّي هناك، في ظُلْمةِ الليل،
وأُلْقي إلى الوجود بيأسي
ثم تحت الصّنَوْبَرِ الرّاضرِ الحُلْوِ
تخطّ السيولُ حُفوّةَ رمسي

❖ ❖ ❖

أيُّها الشعب ! أنتَ طفلٌ صغيرٌ
لاعبٌ بالتّرابِ، واللّيلُ مُغْسِ [1]
أنتَ في الكون قوةٌ كبّ لتّها
ظُلُماتُ العُصور مِنْ أمسِ أمسِ
والشّقيُّ الشّقيُّ من كان مِثْلي
في حساسيّتي، ورِقّةِ نفسي

❖ ❖ ❖

هكذا قال شاعرٌ فيلسوفٌ
عاش في شَعْبِه الغبيِّ بِتَعْسِ [2]
جَهِلَ الناسُ رُوحَه وأغانيها
فَسَاموا شعورَه سَوْمَ بَخْسِ [3]
فهو في مذهبِ الحياة نبيٌّ
وهو في شَعْبِه مُصابٌ بِمَسِّ [4]
هكذا قال، ثم سار إلى الغابِ
ليحيا حياةَ شِعْرٍ وقُدْسِ

---

[1] مُغْسٍ: من غَسِيَ اللَّيْلُ يَغْسى: إذا أظْلَم.
[2] بِتَعْسٍ: بِشَقاء.
[3] ساموا السِّلعة يَسومُها: إذا عرضها للبيع وذَكر ثمنَها.
[4] مُصابٌ بمسٍّ: أي مصاب بجنون.

صلوات في هيكل الحب

عذَبةَ أنت كالطفولةِ ، كالأحلام
كالسماءالضحّ وكِ، كالليلة
يا لها من وَ داعةٍ وجمالٍ
يا لها من طهارةٍ، تبعثَ التقدي ـ
يالها رِ قةّ تكادَ يَرِ فَ الوَرَ
أنتـ،ما أنت ؟ رَ سرَّ جميلَ
فيكِ ما فيه من غَ موضٍ وعَ مَقٍ

❖ ❖ ❖

أنتِ ما أنتِ؟ أنتِ فجرَ من
أنتِ روحَ الربيع، تختالَ في الـ دّ
أنت تَحَ يِيَنَ في فؤاديَ ما قـد
من طَموحٍ إلى الجمال- إلى الفنَ،
وتَبَشّين رِقةّ الشوّق والأحلامِ

كاللحّ ن، كالصّ باح الجديدِ
كالوردِ، كابتسامِ الوليد
وشبابٍ مَنَعّمٍ أمَلودِ!
سَ في مَ هَجةِ الشقيَ العنيدِ !
دَ منها في الصّ خَ رةِ الجَ لَمَودِ!
عبقريَ من فنَ هذا الوجودِ
وجمالٍ مَقَدّسٍ مَعَبوَدِ

تجلّى لقلبيَ المَمَودِ
نيا، فتهتزّ رائعاتَ الورود
مات في أمسيَ السعيدِ الفقيدِ
إلى ذلك الفضاءِ البعيد
والشدَ وِ والهوى في نشيدي

أنتِ أنشودةَ الآناشيدِ غنّاكِ إلهَ الـغِناءِ، رَبّ القصيدِ

فيكِ شبّ الشّبابَ، وشّحه السرَحَرَ وشدّ وَ الهوى، وعِ طرَ الورود

❖ ❖ ❖

أنتِ، أنتِ الحياةَ في قَدَسِها السّ امي، وفي سِحرِها الشرّحيَ الفريدِ

أنتِ، أنتِ الحياةَ ، في رقّةِ الفجر، في رونقِ الربيع الوليد

أنتِ، أنتِ الحياةَ فيكِ وفي عينَيـ ـكِ آياتَ سِ حرِها المَدَود

أنتِ دنيا من الأناشيد والأحلام والسحَ ر والخيالِ المديد

أنتِ فوق الخيال، والشعرِ، والفنَ وفوَق الرؤى وفوق الحدودِ

أنتِ قَدَسي ، ومَعَ بدي، وصباحي وربيعي، ونَشوَتي، وخلودي

يا ابنةَ النّور، إنني أنا وَحَدي مَن رأى فيكِ رَوعَةَ المَعبَودِ

أنقذيني من الأسى ، فلقد أمسَيتُ لا أستطيعَ حَملَ وجودي

في شِعاب الزّمان والموتِ أمشي تحت عِبءِ الحياة جَمّ القيودِ[1]

---

[1] الجمّ: الكثير.

وإذا ما استخفّني عَبَثَ الناس
تبسّمتَ في أسىً وجَمود

بسَمَةً مرّةً، كأنّيَ أسرَقْ
من الشّوك ذابلاتِ الوردِ

فالصرّاحَ الجميلَ يَنعشَ بالدّفءِ
حياةَ الحَمَلِ المكدود[1]

أنقذيني، فقد سئمتَ ظلامي
أنقذيني، فقد مَلَلْتَ ركودي

❖ ❖ ❖

آه يا زهرتي الجميلةَ لو تدرين
ما جَدّ في فؤادي الوحيدِ

في فؤادي الغريبِ تَخلَقَ أكوانَ
من السّحرِ ذاتَ سِحرٍ فريدِ

وشموسٌ وضّاءةٌ ونجومٌ
تتَثاوَرُ في فضاءٍ مديدِ

وحياةٌ شعريّةٌ هي عندي
صورةٌ من حياةِ أهل الخلودِ

❖ ❖ ❖

[1] المكدود: المُتْعَبُ أو المغلوب على أمْره.

الأبَدُ الصغير

يا قلبُ! كم فيكَ من كونٍ قد اتّقدَتْ
فيه الشُم وسُ، وعاشَتْ فوقَه الأُمَمُ

يا قَلْبُ ! كم فيكَ من قَبْرٍ قد
فيه الحياةُ، وضَجّت تحْتَه الرِّمَمُ

يا قلب! كم فيك من غابٍ ومن جَبلٍ
تَدوي به الرِّيحُ أو تسمو به القِمَمُ

يا قلبُ ! إنَّكَ كونٌ مُدهِشٌ عَجَبٌ
إن يُسْأَلِ الناسُ عن آفاق ه يَجِمُوا

كأنَّكَ الأبدُ المجهولُ قد عَجزَتْ
عَنْكَ النُهى، واكفَهرَّت حولَك الظُلَمُ

❖ ❖ ❖

يا قلبُ! كم من مَسرّاتٍ وأخ يلةٍ
ولِذّةٍ، يتحامى ظِلّها الألـمَ

غَنّتْ لفجرِكَ صوتاً حالماً، فرِحاً
نشوانَ ثم توارتْ وانقضى النَّغَمُ

وكم رأى ليلُكَ الأشباحَ هائمةً
مذعورةً تتهاوى حولَها الرُّجُ مُ

ورفرفَ الألمُ الدّامي بأجنحةٍ
من اللّهيب، وأنّ الحُ زْنُ والذِّ مُ

وكم مشرَتْ فوقَك الدُنيا بأجْ مَعِها
حتى توارتْ، وسارَ الموتُ والعَدَ مُ

وشَيَّدْتَ حولَك الأيامُ أبنيةً
من الأناشيدِ تُبْنَى ثم تَنْهدِمُ

❖ ❖ ❖

تمضي الحياةُ بماضيها وحاضرِها
وتذهب الشمسُ والشُطّآنُ والقِمَمُ
وأنت، أنتَ الخِضمَّ الرَّحبُ، لا فوَحٌ
يبقى على سَطحِك الطّاغي، ولا ألم

❖ ❖ ❖

يا قلبُ! كم قد تملّيْتَ الحياة، وكمْ
رقَصتَها مَرَحاً ما مَسّك السأمُ
وكم نسجْتَ من الأحلام أرديةً
قد مزّقتْها الليالي، وهي تبتسمُ
وكم ضفَوْتَ أكاليلاً مُوَرّدةً
طارت بها زَغْزَعٌ نَدْوي وتَخْتدِمُ
وكم رسمْتَ رُسوماً، لا تُشابِهُها
هذي العوالمُ، والأحلام والنُظمُ

❖ ❖ ❖

تَبْلُو الحياةَ فتَسْتَبْلِيها وتَخْلَعُها
وتستجدُّ حياةً، ما لها قِدَمُ[1]
وأنت أنتَ شبابٌ خالدٌ نَضِرٌ
مِثْلَ الطبيعة: لا شَيْبٌ ولا هَرَمُ

❖ ❖ ❖

---

[1] تبلو الحياة: تختبرها وتمتحنها وتجرّبها، وتُبْليها: أي تزيلُ الرَّثَّ منها وتُجدِّدها .

إرادة الحياة

إذا الشّعبَ يوماً أراد الحياة
فلا بدّ أن يستجيبَ القدرَ
ولا بدّ لليلِ أن ينجلي
ولا بدّ للقيدِ أن ينكسرَ
ومن لم يَعانقْه شوقَ الحياةِ
تبخّر في جوّ ها، واندثَ رَ
فويلٌ لمَنْ لم تَ شقْه الحياةَ
من صَ فعَة الع دَمِ المُهْتصرَ
كذلك قالت ليَ الكائناتُ،
وحدّثني روحُ ها المُرْتَتوِ

❖ ❖ ❖

ودمدمتِ الرّيح بين الفِ جاج
وفوق الجبالِ وتحت الشّ جرَ:
«إذا ما طمحتَ إلى غايةٍ
رَكِبْتَ المُنى، ونسيتَ الحَ ذَرَ»
«ولم أتجنّ بَ وَعورَ الشعَابِ
ولا كَ بةَ اللّهب المُ سْتَعِرَ»[1]
«ومن لا يَ حبّ صعودَ الجبالِ
يعش أبدَ الدّ هر بين الحُ فَر»
فعجّتَ بقلبي دم اءَ الشبَاب
وضجّ تَ بصدري رياحُ أَخَ رَ

---

[1] الكُبّة: الثِّقل.

وأطرَقتَ أصغي لِ قَصفِ الرّعودِ
وعَزفِ الرّياحِ، ووَ قْعِ المطرَ

❖ ❖ ❖

وقالت ليَ الأرض ـ لما سألتُ : ((يا أُمُ هل تَكرهُ يَنَ البشَرَ؟))
((أُبارِكُ في النّاسِ أَهْلَ الطّموحِ ومن يَسرِقُ النّارَ ركوبَ الخَطَرْ))
((وأَلعَنُ من لا يُماشي الزّمانَ، ويَقْنَعُ بالعيشِ عيشَ الحجرِ))
((هو الكون حيٌ ، يُحبُ الحياةَ، ويحتقرُ الميْتَ، مهما كَبُرْ))
((فلا الأُفقُ يَحْضِنُ مَيْتَ الطيور، ولا النّحْلَ يَلْثُمُ مَيْتَ الزّهَرْ))
((ولولا أُمومةُ قلبي الرّؤومُ لما ضَمّت الميْتَ تلك الحُفَرْ))
((فويلٌ لمن لم تَشُقّه الحياةُ ، مِنْ لَعْنَةِ العَدَمِ المُنْتَصِرْ))

❖ ❖ ❖

ظَمِئْتُ إلى النّورِ فوق الغصونِ ظمئتُ إلى الظلّ تحت الشّجَرْ
ظمئتُ إلى النّبْعِ بين المروج يُغَنّي، ويرقصُ فوق الزّهَرْ
ظمئتُ إلى نغمات الطّيور، وهمْسِ النّسيم، ولحْنِ المطرْ
ظمئتُ إلى الكونِ، أينَ الوجودُ، وأنّى أرى العالَمَ المُنْتظَرْ؟

❖ ❖ ❖

ورنّ نشيدُ الحياة المُقَدّسُ في هيكل حالمٍ قد سَحرْ
وأعلنَ في الكون أنّ الطّموحَ لهيبُ الحياةِ، وروحُ الظّفَرْ
إذا طَمَحَتْ للحياةِ النّفوسُ فلا بُدّ أنْ يَستجيبَ القَدَرْ !

❖ ❖ ❖

نشيد الجبار

أو هكذا غنّى "بروميثيوس" (*)

سأعيشُ رغمَ الداءِ والأعداءِ
كالنّسرِ فوق القمّةِ الشّماءِ
أرنو إلى الشّمس المضيئةِ هازئاً
بالسّحْب والأمطـ ـار والأنواءِ
وأسيرُ في دنيا المَشاعرِ حالماً
غَرِداً ـ وتلك سعادةُ الشُعراءِ ـ
أُصغي لموسيقى الحياةِ ووحْيِها
وأُذيبُ روحَ الكون في إنشائي

❖ ❖ ❖

وأقولُ للقدر الذي لا يَنْثني
عن حربِ آمالي بكلِّ بلاءِ :
((لا يُطفئُ اللّهبَ المؤجّجَ في دمي
مَوْجُ الأسى، وعواصفُ الأرزاءِ))

(*)بروميتيوس Prometheus : إله النار عند اليونانيين، ومؤسس الحضارة الإ نسانية.. وتشير الأساطير اليونانية القديمة إلى أنه هو الذي اخ تطف النار من السّماء ونقلها إلى البشر، فكان عقابه أن قُيِّد على جبل القوقاس إلى أن خلّصه البطل اليوناني هيراكليس .
انظر معلوف ، لويس : المنجد في الأعلام ، ط٢٣، ص١٢٥

((فاهدمْ فؤادي ما استطعتَ، فإنه

سيكون مِثْلَ الصّخْرةِ الصّمّاءِ))

((لا عَرِفَ الشكوى الذليلةَ والبُكَا

وضَراعَةَ الأطفال والضُعفاءِ))

((ويعيشُ جباراً، يُحدِّق دائماً

بالفجر. بالفجر الجميل النّائي))

❖ ❖ ❖

((النورُ في قلبي وبين جوانحي

فعلامَ أخشى السّيرَ في الظّلْماءِ))

((إني أنا النّايُ الذي لا تنتهي

أنغامُه، ما دام في الأحياءِ))

((وأنا الخِضَمُّ الرّحْبُ، ليس تَزِيْدُه

إلا حياةً سَطْوةُ الأنواءِ))

❖ ❖ ❖

وأقولُ للجَمْع الذين تَجشّمُوا

هَدْمِي، ووَدُّوا لو يَخِرُّ بِنائي

وغدَوْا يَشبُونَ اللّهيبَ بكلّ ما

وَجَدُوا، لِيَشْوُوا فوقَه أشلائي :

إني أقول لهم . ووجهي مُشْرِقٌ

وعلى شفاهي بسمةُ استهزاءِ ـ :

((إنّ المعاول لا تَهدُّ مَناكبي

والنّارُ لا تأتي على أعضائي))

فارمُوا على ظِلّي الحجارةَ،

خوفَ الرّياحِ الهَوجِ والأنواءِ

وترنّموا ـ ما شئتُمَ ـ بشتائِمي

وتجاهَروا ـ ما شئتُمَ ـ بِعِدائِي

أمّا أنا فأجيبُكُم م ن فوقكُم

والشمسُ والشّفَقُ الجميلُ إزائي :

مَنْ جاشَ بالوحي المقدّس قلْبُه

لم يحتفِلْ بحجارةِ الفُلَتَاءِ

الاعتـراف

وفيها يشير إلى أنه لم يكن يتوقع أن يعود إلى حياته الطبيعية بعد وفاة والده:

ما كنتُ أَحْسَبُ بعد موتك يا أبي
ومشاعري عمياءُ بالأحزانِ .
أنِّي سأظمـأ للحيـاة، وأَحْتسِي
من نهرِ ها المتوهِّ ج النّ شْوانِ
وأعودُ للدُّنيا بقلبٍ خافقٍ
للحبِّ، والأفراح والألحانِ
ولكل ما في الكون من صُوَرِ الهُنَى
وغرائبِ الأهواءِ والأشجـانِ
حتى تحرّ لكَ الرِّنُونَ، وأقبلَ ت
فتَنُ الحيـاةِ بسِحْرِهـا الفـتّانِ
فإذا أنا ما زلْتُ طفلاً مُوْلَعاً
بتَعقُّبِ الأضـواءِ والألـوانِ
وإذا التشاؤُمُ بالحياةِ ورَفضُهُا
ضرْبٌ من البُهتانِ والهَذَيـانِ
إن ابنَ آدمَ في قرارةِ نَفْسِهِ
عيدُ الحياةِ الصـادقُ الإيمـانِ

❖ ❖ ❖

إلى طُغَاةِ العَالَم

وفيها يتوعَّد كلَّ ظالمٍ مستبدٍّ بمصير أسود، وبنهايةٍ وخيمةٍ، إذ يقول:

ألا أيُّ ها الظالِ مُ المستبدُّ
حبيبَ الظلام، عدوَّ الحياةْ
سَخِرْتَ بأنّاتِ شعبٍ ضعيفٍ
ولفَّكَ مخضوبةٌ من دِ ماةْ
وسِرْتَ تُشوِّهُ سِحْ رَ الوجودِ
وتَبْذُرُ شرّكَ الأسى في رُ باةْ

❖ ❖ ❖

رويدَك لا يَجْ دَعَنّك الرّبيعُ
وصَحْ وُ الفضاءِ، وضَوْءُ الصبّاحْ
ففي الأُفقِ الرَّحْ بِ هَوْلُ الظلَّامِ
وقصفُ الرُّعودِ، وعَصْفُ الرّياحْ
حَذارِ! فتَحْتَ الرَّمادِ اللهّيبُ
ومن يَبْذُرِ الشرَّ يَجْنِ الجِراحْ

تأمَّلْ هنالك، أنَّى حَ صرْتَ

رؤوسَ الورى، وزُهورَ الأملْ

وروَّيْتَ بالدّمِّ قلبَ التوُّابِ

وأشرَبْتَهَ الدَّ مْـعَ حتى ثمِلْ

سرَجَّ رِفلُك السَّ يْلُ، سيلُ الدماءِ

ويأكلُكَ العَـاصِفُ المُرْتَعِلْ

❖ ❖ ❖

الغَــاب

قصيدة طويلة مليئة بالمفردات التي استعارها الشابي من الطبيعة، وقد اخترنا منها الأبيات التالية:

بيتٌ بنتّه ليَ الحياةُ من الشذَى
والظلُّ والأضواءِ والأنغامِ
بيتٌ ـ من السحر الجميل ـ مشيّدٌ
للحبِّ والأحلام والإلهام
في الغاب سِرٌّ رائعٌ متجدّدٌ
باقٍ على الأيامِ والأعوامِ
وشذىً كأجنحةِ الملائكِ غامضٌ
ساهٍ يرفرفُ في سكونٍ سامِ
وجداولٌ تشدو بمعسولِ الغِنا
وتسيرُ حالمةً بغيرِ نظامِ
ومخاوفٌ نسَجَ الزمانُ بساطَها
من يابسِ الأوراق والأكمامِ
وحنا عليها الدّوْحُ في جَبَروتهِ
بالظّلِّ والأغصانِ والأنسام
في الغاب دنيا للخيال وللرُّؤى
والشِعْرِ والتفكير والأحلامِ

لله يومَ مضيْتُ أوّلَ مرةٍ
للغاب أرْزَحُ تحتَ عِبء سقَامي
ودخلْتُهُ وحدي، وحولي موكبٌ
هَزِجٌ من الأحلامِ والأوهام
ومشيْتُ تحت ظلاله متهيِّباً
كالطفل في صمتٍ وفي استسلام
أرنو إلى الأدواح في جبروتها
فأخالُها عَمَدَ السماءِ أمامي
قد مَسرّها سِحْرُ الحياة، فأورقت
وتمايلتْ في جَنّةِ الأحلام
والريح تخفقُ في الفضاء وفي الرُبَى
وعلى الجبال الشمِّ والآكام
باكرْتُ فيه الغابَ موهونَ القوى
متخاذلَ الخطواتِ والأقدام
وجلسْتُ تحت السنديانة واجماً
أرنو إلى الأفُقِ الكئيب أمامي
فأرى المباني في الضّبابِ كأنّها
فِكَرٌ بأرضِ الشّكِ والإبهامِ

وأرى الفجَ اجَ الدّامساتِ خلالهُ
ومشاهدَ الوديانِ والآجامِ
فكأنّها شرَبُ الجحيم رهيبةً
ملفوفةً في غَبشةٍ وظلامِ
صورٌ من الفنِّ الرّوِّعِ أَعْجزَتْ
وحيَ القريضِ وريشةَ الرّسّامِ

❖ ❖ ❖

في الغابِ، الغابِ الحبيبِ، وإنّه
حَرَمُ الطبيعةِ والجمالِ السلّامي
طهّرْتُ في نارِ الجمالِ مشاعري
ولقيْتُ في دنيا الخيالِ سلامي
فاخْلَعْ مَسرُوحَ الحُزنِ تحت ظلالهِ
والبسْ رداءَ الشعْرِ والأحلام))
((وارفعْ صلاتَكَ للجمالِ عميقةً
مشبوبةً بحرارةِ الإلهامِ))
((واصدحْ بألحانِ الحياةِ جميلةً
كجمالِ هذا العالَمِ البسَّامِ))
((واخْفِقْ مع الطّلِّ الرّفِيفِ في الضّحَا
وارقُصْ مع الأضواءِ والأنسامِ))

ومضيتُ أَشْدُو للأشعةِ ساحراً
من صوتِ أحزاني، وبطشِ سرَقَامي
وهتفتُ: ((يا روحَ الجمالِ تدفقّي
كالنّهر في فلَوَي وفي أحلامي))
((أنتِ الشّعورُ الحيُ يَزْخَرُ دافقاً
كالنّار في روح الوجود النّامي))
((ويصوغُ أحلامَ الطبيعة، فاجعلي
عمري نشيداً ساحرَ الأنغام))
((وشذاً يفوح مع الأشعّةِ والرّؤى
في مَعْبَدِ الحقْ الجليلِ السّامى))

❖ ❖ ❖

ثَبْتٌ بالمصادر والمراجع

أ ـ الشابي ، أبو القاسم : ديوان أغاني الحياة، بيروت (لبنان) ـ دار النجم، ١٩٩٤م، (١٣٦) ص

ب ـ الحاوي، إيليّا : أبو القاسم الشابي (شاعر الحياة والموت)، ج (١،٢،٣) ـ الطبيعة والحب، بيروت (لبنان) ـ دار الكتاب اللبناني،ط ٤ ، ١٩٨٤م، (٤٦٦) ص.

جـ ـ النقّاش، رجاء : أبو القاسم الشابي (شاعر الحب والثورة) ـ دراسة ومختارات ـ القاهرة (مصر) ـ أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ط١ ، ٢٠٠٤م، (١٦٠) ص

د ـ السنوسي، زين العابدين : أبو القاسم الشابي : حياته ـ أدبُه، تونس ـ دار الكتب الشرقية، ١٩٥٦ ، (٦٧) ص

هـ ـ عبد العزيز، ضحى : ديوان أبي القاسم الشابي (حياته ـ شعره)، دمشق ـ دار كرم للطباعة والنشر، ١٩٨٠ ، (٩٦) ص.

و ـ سرور، طه عبد الباقي : أبو القاسم الشابي (شاعر الشباب والحرية)، القاهرة (مصر) ـ المكتبة العلمية، ١٩٥٨م، (١١٩) ص.

ز ـ النعماني، عبد العزيز : أبو القاسم الشابي (رحلة طائر في دنيا الشعر)، القاهرة (مصر) ـ الدار المصرية ـ اللبنانية، ١٩٩٧م،(٨٨) ص

ح ـ الحر، عبد المجيد : أبو القاسم الشابي (كوكب السحر)، بيروت (لبنان) ـ دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، (١٨١) ص.
ط ـ معلوف، لويس : المنجد في الأعلام، بيروت (لبنان)، ط ٢٣، ٢٠٠١م، (٧١٣) ص.
ي ـ الحبيب بحري، مصطفى : الشابي النبّي المجهول، دمشق ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٠م، (٩٦) ص.

فهرس

بين يدَي القارئ ٤

أبو القاسم الشابي ٦

الولادة والنشأة ٧

قصة مرضه ووفاته ١١

شخصية الشابي والعوامل المكوِّنة لها ١٣

خصائص شعر الشابي الفنية ١٥

آثار الشابي الإبداعية ١٧

أغراض الشابي الشعرية ١٩

الجانب الرومانسي في شعر الشابي ٥٢

الجانب الإنساني في شعر الشابي ٥٤

خاتمة ٥٦

مختارات من شعر الشابي ٥٨

تونس الجميلة ٥٩

زئيرُ العاصفة ٦١

إلى الطاغية ٦٣

الدُّمُوع ٦٦

مُنَاجَاةُ عُصْفور ٦٨

يا مَـوتُ! ٧١

النبي المجهول ٧٣

صلوات في هيكل الحب ٧٥

الأَبَدُ الصغير ٧٨

إرادة الحياة ٨٠

نشيد الجبار ٨٢

الاعتـراف ٨٥
إلى طُغَاة العَالَم ٨٦
الغَــاب ٨٨
ثَبْتٌ بالمصادر والمراجع ٩٢
فهرس ٩٤